الباب العشرون

نهضة الشمال

٥٦٦ – ١٠٦٦

الفصل الأول

إنجلترا (٥٧٧ – ١٠٦٦)

---

١ – ألفرد والدنمرقيون (٥٧٧ – ١٠١٦)

لم يلق فتح الإنجليز والسكسون والجوت لإنجلترا بعد واقعة دورهام Deorham (٥٧٧) إلا مقاومة يسيرة ، وما لبث الغزاة أن اقتسموا البلاد فيما بينهم ؛ فأقام الجوت مملكة فى كنت Kent ، وأسس الإنجليز ثلاث ممالك فى مرسية ، ونورثمبرلاند ، وأنجليا الشرقية East Anglia ؛ وأنشأ السكسون ثلاث ممالك أخرى فى وسكس Wessex ، وإسكس Essex ، وسسكس Sussex أى فى سكسونيا الغربية ، والشرقية ، والجنوبية . وكانت هذه الممالك السبع الصغيرة وممالك أخرى أصغر منها هى التى تكون فيها « تاريخ إنجلترا » حتى جمع أجبرت Egbert ملك سكس معظمها بالقوة أو بالختل فى مملكة واحدة تحت حكمه .

وقبل أن ينشئ ملك السكسون هذه المملكة الجديدة – مملكة الإنجليز –

بدأت غزوات الدنمرقيين التي اجتاحت البلاد من بحر إلى بحر وهددت المسيحية الناشئة فيها بإحلال وثنية همجية جاهلة محلها ؛ وفى ذلك يقول السجل الإنجليزى السكسونى : « جاءت فى عام ٧٨٧ ثلاث سفن إلى سواحل سكسونيا الغربية ... وقتلت الأهلين — وكانت هذه أولى سفن الدنمرقيين التى جاءت تطلب أرض شعب الإنجلز » . وأغارت على نوثمبرلند Northumberland فى عام ٧٩٣ حملة دنمرقية أخرى ، وخربت دير لندسفارن Lindisfarne الشهير وذبحت رهبانه . وفى عام ٧٩٤ دخل الدنمرقيون نهرو ير Wear ، ونهبوا ويرموث Wearmouth وچرو Jarrow حيث كان يكدح بك Bec العالم قبل خمسين سنة من ذلك الوقت . وفى عام ٨٣٨ هاجم المغيرون أنجليا الشرقية East Anglia وكنت Kent ؛ وفى عام ٨٣٩ رابط أسطول للقراصنة مؤلف من ٣٥٠ سفينة فى نهر التاميز ، بينما كان بحارته ينهبون كنتربرى Canterbury ولندن . وفى عام ٨٦٧ — فتحت قوة من الدنمرقيين والسويديين مقاطعة نورثمبرلند ، وقتلت آلاداً من « الإنجليز » ، وخربت أديرتها ، وأتلفت ما فيها من دور الكتب أو شتتتها . وخيمت الفاقة والجهالة على مدينة يورك وما حولها ، وهى البلدة التى حبت شارلمان بألكوين ؛ ولم يحل عام ٨٧١ حتى كان معظم إنجلترا الممتد فى شمال نهر التاميز خاضعا للمغيرين . واتجه جيش دنمرقى بقيادة جثرم Guthrum نحو الجنوب فى ذلك العام نفسه ليهاجم ردنج Reading عاصمة وسكس ؛ والتقى إثلرد Ethelred مليكها وأخوه الأصغر ألفرد بالدنمرقيين عند آشدون Ashdown وهزموا المغيرين ؛ ولكن إثلرد جرح جرحاً مميتاً فى معركة ثانية عند مرتن Merton وولى الإنجليز الأدبار .

وجلس ألفرد على عرش سكسونيا وهو فى الثانية والعشرين من عمره (٨٧١) ويصفه أسر Asser بأنه كان وقتئذ أمّيًّا illiteratus ؛ وقد يكون معنى هذا اللفظ أنه يجهل القراءة والكتابة أو أنه لا يعرف اللغة اللاتينية ! ويبدو أنه كان مصابا

بالصرع ، وأنه أصيب بنوبة من نوبات الداء في يوم زفافه ؛ ولكنه كان صياداً قوياً ، وسيم الطلعة ، رشيقاً ، يفوق إخوته في الحكمة والمهارة الحربية ؛ فلما مضى شهر على تتويجه ، زحف بجيشه الصغير على الدنمرقيين الذين كانوا عند ولتن Wilton ولكنه هزم فيها هزيمة منكرة اضطرته إلى شراء الصلح من عدوه لينقذ بذلك عرشه ؛ غير أنه انتصر في معركة حاسمة عند إثندون Ethandun (إدنجتن Edington الحالية) في عام ٨٧٨ اجتاز بعدها نصف الجيش الدنمرقي القناة الإنجليزية ليغير على فرنسا المستضعفة ؛ أما بقية الجيش فقد وافق بمقتضى معاهدة ودمور Wedmore . على ألا يتجاوز رجاله شمالي إنجلترا الشرقي في البلاد التي سميت فيما بعد دين لو Danelaw .

ويقول أسر وهو كاتب لا يوثق كل الثقة بأقواله إن ألفرد زحف بجيشه على أنجليا الشرقية « يقصد نهبها » ، وفتح البلاد ، ونادى بنفسه ملكاً عليها وعلى مرسية بالإضافة إلى وسكس ؛ ولعله كان يقصد بهذا الزحف أن يوحد إنجلترا لكي يقاوم بها الدنمرقيين . فلما تم له ذلك وجه عنايته — كأنه شارلمان صغير — إلى شئون الحكم وإعادة تنظيم البلاد . فنظم الجيش تنظيما جديداً ، وأنشأ عمارة بحرية ، ووضع قانوناً موحداً لممالكه الثلاث ، وأصلح نظام القضاء ، وسن من القوانين ما يكفل حماية الفقراء ، وأنشأ مدناً وبلداناً جديدة ؛ وأعاد بناء القديمة ، وشاد « بالحجارة والخشب أبهاء وغرفاً ملكية » ، لموظفي حكومته الآخذين في الازدياد(٢) . وقد خصص جزءاً من ثمانية أجزاء من إيراد الدولة لإعانة الفقراء ، وجزءاً آخر مثله للتعليم . وأنشأ في ردنج عاصمة ملكه مدرسة في قصره ، وجاد بالمال بسخاء على أعمال التعليم والدين التي تقوم بها الكنائس والأديرة . وكان يحزنه ويقض مضجعه أن يعود بذاكرته إلى أيام صباه حين كانت « الكنائس غاصة بالكنوز والكتب . . . قبل أن تخرب وتحرق » بفعل الدنمرقيين ؛ أما الآن : « فقد انحط التعليم بين الإنجليز انحطاطاً كانت نتيجته

أن عدداً قليلا جداً منهم . . . هم الذين يستطيعون فهم طقوس دينهم باللغة الإنجليزية ، أو ترجمة شيء منها إلى اللاتينية »[٣] . وقد بعث إلى البلاد الخارجية فى طلب العلماء — بعث فى طلب الأسقف أسر Asser من ويلز ، وإرچينا Erigena من فرنسا ، وكثيرين غيرهم — ليأتوا ويعلموا شعبه ويعلموه هو نفسه . وكان يؤسفه أنه لم يجد من قبل إلا قليلا من الوقت يخصصه للقراءة ، ولهذ فقد أقبل الآن على الدراسات الدينية والعلمية إقبال الرهبان . وقد ظل يلاقى صعوبة فى القراءة ، ولكنه كان « يأمر رجالا يقرأون له ليلا ونهاراً » . أن يكون هو أول من أدرك ما للغات القومية من خطر متزايد قبل أن يدركه أحد وكاد غيره من الأوربيين ، فعمـــل على أن تترجم بعض الكتب الأساسية الهامة إلى اللغة الإنجليزية ، وجد هو نفسة فى ترجمة كتاب سلوى الفلسفة The Consolation of Philosphy لبوئتيوس Boetius ، وكتاب العناية بالرعى Pastoral Care لجريجورى ، وكتاب التاريخ العام Universal History لأوروسيوس Orosius وتاريخ إنجلترا الكنسى Ecclesiastical History of England لبيد Bede ؛ وعمل ما عمله شارلمان فجمع أغانى شعبه ، وعلمها أولاده ؛ وشارك المغنين فى بلاطه فى إنشادها .

ووصلت غزوة دنمرقية جديدة إلى كنت فى عام ٨٩٤ ؛ وبعث دنمرقيو والدين لوالى الغزاة بالمدد ؛ وعقد الوطنيون أهل ويلز والكلت ، الذين لم يكن الإنجليز والسكسون قد تغلبوا عليهم بعد ، حلفا مع الدنمرقيين . وانقض إدورد ابن ألفرد على معسكر القراصنة ودمره ، وشتت أسطول ألفرد الجديد شمل الأسطول الدنمرقى (٨٩٩) وتوفى الملك بعد عامين من هذه الواقعة ، ولم تكن سنة قد تجاوزت الثانية والخمسين . وليس فى وسعنا أن نوازنه برجل جبار مثل شارلمان لأن الرقعة التى كانت مسرحاً لمغامراته رقعة ضيقة ، ولكنه ضرب

للأمة الإنجليزية بصفاته الأخلاقية — تقواه ، واستقامته الخالية من التباهى ، واعتداله ، وجلده ، وإخلاصه لشعبه ، وشغفه بالاستزادة من التعليم — ضرب لها بهذه الصفات مثلا ، وبعث فيها روحا ، تلقتها بأعظم الشكر ونسيتها بعد قليل . وقد أعجب به ڤلتير إعجاباً لعله كان مسرفاً فيه إذ قال : « لست أظن أنه كان فى العالم كله رجل أجدر باحترام الخلف من ألفرد الأكبر »(٤) .

وواصل الإسكندیناویون هجومهم على إنجلترا فى أواخر القرن العاشر ، فأغارت قوة من الڤيكنج (القراصنة النرويجيين) بقيادة أولاف تريجڤسون Olaf Tryggvesson على سواحل انجلترا فى عام ٩٩١ . وعجز الإنجليز بقيادة الملك إثلرد (٩٧٨ — ١٠١٣) (الملقب بردلس Redeless أى غير المنتصح لأنه أبى أن يعمل بمشورة أعيان البلاد) فنفح الغزاة برشا سخية متتابعة ١٠٫٠٠٠ ، ١٦٫٠٠٠ ، ٢٤٫٠٠٠ ، ٣٦٫٠٠٠ ، ٤٨٫٠٠٠ رطل من الفضة جمعها دينجلد Danegeld المخرب الوقح من أول ضريبة عامة فرضت على إنجلترا . وسعى إثلرد لكسب المعونة الأجنبية فشرع يفاوض نورمندية فى عقد حلف معه ، وتزوج إما Emma ابنة رتشارد الأول دوق نورمندية ، ونشأت من هذا الزواج أحداث خطيرة . وادعى إثلرد أن الدنمرقيين يأتمرون به ليقتلوه ، ويقضوا على برلمان الأمة الويتنأجمور Witenagemor فأمر بقتل كافة من فى الجزيرة من الدنمرقيين أينما وجدوا (١٠٠٢) . ولسنا نعلم إلى أى حد نفذ هذا الأمر بحذافيره ، وأكبر الظن أن جميع من كانوا فى انجلترا من الذكور القادرين على حمل السلاح قد قتلوا هم وبعض النساء ، وكان من بين من قتلن منهن أخت سوين Sweyn ملك الدنمرقة ، وأقسم سوين أن يثأر لمقتلها ، فغزا إنجلترا فى عام ١٠٠٣ ، وأعاد الكرة عليها بجميع قواه فى عام ١٠١٣ . وتخلى نبلاء إثلرد عنه ، ففر إلى نورمندية ، وأصبح سوين ملك إنجلترا وسيدها . غير إن إثلرد عاد إلى الكفاح بعد موت سوين (١٠١٤) . وتخلى عنه الأعيان مرة أخرى ، وعقدوا الصلح مع كنوت

Cnut بن سوين (١٠١٥) . ومات إثلرد فى لندن وهى محاصرة ، وحارب إدمند ذو الجانب الحديدى Edmund Ironside ببسالة ولكن كنوت تغلب عليه عند أسندون Assandun (١٠١٦) . وارتضت إنجلترا بأجمعها كنوت ملكا عليها ، وتم بذلك للدنمرقيين فتح إنجلترا .

٣ — الحضارة الإنجليزية — السكسونية ٥٧٧ — ١٠٦٦

لم يكن هذا الفتح أكثر من فتح سياسى ؛ فقد كانت أنظمة الإنجليز والسكسون ، ولغتهم ، وأساليب حياتهم قد تعمقت أصولها فى إنجلترا خلال القرون الستة الماضية تعمقاً لا يستطاع معه فهم نظام الحكم فى البلاد أو لغة الإنجليز أو أخلاقهم إلا بدراسة هذه الأصول . ولقد تبدلت فى أثناء الفترات الخالية من الأحداث ، بين حرب وحرب ، وبين جريمة وجريمة ، أساليب الحرث والزرع والتجارة ، وبعثت الآداب بعثاً جديداً ، وأقيم صرح النظام والقانون على مهل .

وليس فى التاريخ أساس لذلك القول الخداع وهو أن إنجلترا الإنجليزية السكسونية كانت جنة تنعم فيها عشائر الفلاحين الأحرار بالحياة القروية الدمقراطية . ذلك أن زعماء الجيش الإنجليزى السكسونى قد استولوا على الأرض الزراعية ، فلم يحل القرن السابع الميلادى حتى كان عدد قليل من الأسر يمتلك ثلثى تلك الأراضى(٥) ، ولم يحل القرن الحادى عشر حتى كانت معظم البلدان ضمن أملاك الملك الخاصة أو أحد النبلاء أو الأساقفة . وفى أثناء الغزو الدنمرقى نزل كثير من الفلاحين عن أملاكهم فى نظير حمايتهم ، ولم يحل عام ١٠٠٠ بعد الميلاد حتى كان معظمهم يؤدون إيجاراً من محصولهم أو من كدحهم إلى أحد السادة الملاك(٦) . وكانت هناك « اجتماعات للمدينة » و « اجتماعات للشعب » ، « واجتماعات المائة » وهى اجتماعات كانت بمثابة جمعيات أو محاكم للمقاطعة . ولكن لم يكن يسمح بحضورها إلا للملاك الأراضى ، وأخذت هذه ال[illegible]

obeikandl.com

يضعف سلطانها وتقل مرات اجتماعها بعد القرن الثامن ، ويحل محل معظمها محاكم النبلاء فى ضياعهم . وكانت معظم السلطة الحكومية بإنجلترا فى يد إلويتناجموت Witenagemot القومى — « مجلس العقلاء » — وهو جمعية صغيرة إلى حد ما تتألف من النبلاء ، والأساقفة ، وكبار وزراء التاج ؛ وبغير موافقة هذا البرلمان الأبسط لم يكن ملك إنجليزى يختار أو يبقى على عرشه ، أو يضيف قيراطا إلى مزارعه الخاصة التى كان يستمد منها إيراده المستديم ؛ ولم يكن فى وسعه أن يسن قانونا ، أو يصدر حكما قضائياً ، أو يشن حرباً ، أو يعقد صلحا إلا بموافقته (٧) . وكان أعظم سند للملكية ضد هذه الهيئة الأرستقراطية هو ما كان بينها وبين الكنيسة من حلف غير رسمى . ذلك أن الدولة الإنجليزية قبل الفتح النورمندى وبعده كانت تعتمد على رجال الدين فى كل ما يتصل بالتعليم العام ، والنظام الاجتماعى ، والوحدة القومية ، وبالإدارة السياسية نفسها . وكان القديس دنستان رئيس دير جلاستنبرى Glastonbury كبير مستشارى الملكين إدمند Edmund (٩٤٠ — ٩٤٦) وإدرد Edred (٩٤٦ — ٩٥٥) ، وقد حمى الطبقتين الوسطى والدنيا من النبلاء ، وكان جريئاً فى نقد الملوك والأمراء ، ولذلك نفاه الملك إدوج Edwig (٩٥٥ — ٩٥٩) من البلاد ، ثم أعاده إدجر Edgar (٩٥٩ — ٩٧٥) إليها ، وهو الذى وضع التاج على رأس إدورد الشهيد Edward the Martyr (٩٧٥ — ٩٧٨) ، وشاد كنيسة القديس بطرس فى جلاستنبرى ، وشجع الفنون والتعليم ، وتوفى وهو كبير أساقفة كنتربرى فى عام ٩٨٨ . وكان أهل إنجلترا يجلونه ويعدونه أعظم قديسيهم قبل تومس آبكت Thomas à Becket .

ونشأت الشرائع ببطء فى هذه الحكومة المفككة . وقد وجدت فى القانون الألمانى القديم ، بعد أن عدل لفظه وظروفه ، كفايتها . وبقيت فى هذا القانون عادات تبرئة المتهم بشهادة شهود يقسمون بأنه برىء ، كما بقيت فيه الدية ،

والتحكيم الإلهى ، ولكن عادة المحاكمة بالاقتتال لم تكن معروفة فيه ؛ وكانت الدية فى القانون الإنجيلى (الإنجليزى) تختلف اختلافا له دلالته . فكانت دية الملك ثلاثين ألف ثرمزا Thrimsas (نحو ١٣٫٠٠٠ دولار أمريكى) ، ودية الأسقف ١٥٫٠٠٠ ، ودية النبيل أو رجل الدين ألفين ، ودية الفلاح الحر ٢٦٦ . وكان القانون الإنجليسكسونى يقضى بأن يغرم الإنسان شلناً أو شلنين إذا تسبب فى جرح إنسان جرحا يبلغ طوله بوصة واحدة ، وثلاثين شلناً إذا قطع جزءاً من أذن ؛ على أننا يجب أن نضيف هنا أن الشلن الواحد كان يكفى لابتياع خروف . وكان قانون إثلبرت يعاقب الزانى بأن يؤدى إلى زوج من زنى بها غرامة ويبتاع له زوجة أخرى(٨) . وكل من قاوم أمر محكمة من المحاكم نودى به « خارجاً على القانون » فتصادر أملاكه لصالح الملك ، ويباح دمه . ولم يكن يسمح بالدية فى بعض الحالات ، وكانت توقع بدلا منها عقوبات صارمة : الاسترقاق ، والجَلْد ، والإخصاء ، وبتر اليدين أو القدمين ، أو الشفة العليا ، أو جدع الأنف ، أو صلم الأذن ، أو إعدام المذنب بشنقه ، أو قطع رأسه ، أو حرقه ، أو رجمه ، أو إغراقه فى الماء ، أو إلقائه فى هوة سحيقة(٩) .

وكان النظام الاقتصادى شبيها بالقانون فى بدائيته ، وكان أقل تقدماً منه فى بريطانيا الرومانية . وكانت جهود كثيرة قد بذلت فى تقطيع الغابات وتجفيف المناقع ، ولكن إنجلترا كانت لا تزال فى القرن التاسع تشغل نصفها الغابات ، والمروج ، والمناقع ، وكانت الحيوانات البرية — الدببة ، والحلاليف ، والذئاب — لا تزال تجوس خلال الغابات . وكان أكثر من يفلح الضياع هم الأسرى أو الأرقاء . وكان الاسترقاق فى بعض الحالات مآل المذنبين أو المجرمين ؛ وكان فى وسع الأزواج أو الآباء أن يبيعوا أزواجهم أو أبناءهم إذا اضطرتهم الحاجة إلى بيعهم ؛ وكان جميع أبناء الأمة أرقاء واو كان آباؤهم من الأحرار . وكان فى مقدور السيد أن يقتل عبده متى أراد ، وأن يضاجع أمته ثم يبيعها وهى حامل منه .

ولم يكن من حق العبد أن يرفع قضية إلى محكمة ، وإذا قتله غريب ذهبت ديته القليلة إلى مالكه ، وإذا أبق ثم قبض عليه كان يستطاع جلده حتى يموت(١٠) وكانت أهم تجارة فى برستل Bristol هى تجارة الرقيق . وكان سكان البلاد كلهم إلا القليلين منهم قرويين ، فكانت البلدان كفورا ؛ والمدن بلدنا غير كبيرة(*) فكانت لندن ، وإكستر ، ويورك ، وتشستر ، وبرستل ، وجلوسستر ، وأكسفورد ، ونروج Norwich ، وورستر ، ونشستر كانت هذه كلها بلدانا صغيرة ولكنها نمت نمواً سريعاً بعد زمن ألفرد ، ولما أن جاء الأسقف مليتس فى عام ٦٠١ ليعظ فى لندن لم يجد إلا « عدداً قليلامن السكان الوثنيين»(١١) ، فى البلدة التى كانت إحدى الحواضر فى أيام الرومان ، ثم عادت إلى النماء فى القرن الثامن بفضل مركزها الحربى المشرف على نهر التاميز ، حتى أصبحت فى عهد كنوت عاصمة البلاد القومية .

وكانت الصناعة تعمل عادة للسوق المحلية ؛ غير أن صناعتى النسيج والتطريز كانتا أكثر تقدما من سائر الصناعات ، وكانتا تصدران منتجاتهما إلى بلاد القارة الأوربية . وكانت وسائل النقل صعبة غير آمنة ، والتجارة الأجنبية ضئيلة الشأن . وبقيت الماشية تستعمل أداة للتبادل حتى القرن الثامن ، ولكن بعض الملوك سكوا فى ذلك القرن نقوداً فضية ، منها شلنات ومنها جنيهات ؛ وكانت أربعة شلنات فى إنجلترا فى القرن العاشر تكفى لشراء بقرة وتكفى ستة لشراء ثور(١٢) . وكانت الأجور منخفضة بهذه النسبة نفسها ، وكان الفقراء يسكنون فى أكواخ خشبية ذات سقف من القش ، ويعيشون على الخضر ، أما خبز القمح واللحم فكانا طعام الأغنياء أو حفلات أيام الآحاد . وكان الأغنياء يزينون قصورهم

(*) وقد احتفظت كثير من المدن الإنجليزية بمقاطع أنجليسكسونية فى بدايتها —tun (town) بلدة ، ham (home) وطن ، Wick (house) منزل أو غور ، Thorp (قرية) ، burh (قلعة) .

الساذجة الخشنة بستائر مصورة ، ويدفئون أجسامهم بالفراء ، ويجملون أثوابهم بالتطريز ، ويزينون أنفسهم بالجواهر .

ولم تكن العادات والأخلاق ظريفة متأنقة كما أضحت فى بعض العصور المتأخرة من تاريخ انجلترا ، فنحن نسمع الشىء الكثير عن الخشونة والفظاظة ، والوحشية ، والكذب ، والغدر ، والسرقة وغيرها من العادات المتأصلة ، ويعترف القراصنة النورمان الذين أغاروا على انجلترا فى عام ١٠٦٦ ، ومنهم من لم يكونوا أبناء شرعيين ، بأنهم دهشوا من انحطاط المستوى الخلقى والثقافى عند ضحاياهم . وكان جو انجلترا الرطب يغرى الإنجليز — السكسون بالإفراط فى الطعام والشراب ، وكانت « حفلة الجمعة » عندهم من مستلزمات المجتمعات والأعياد . ويصف القديس بنيفاس الإنجليز فى القرن الثامن وصفاً بهيجاً لا يخلو من المغالاة فيقول « إن المسيحيين والوثنيين على السواء يأبون أن تكون لهم زوجات شرعيات ، ولا يزالون يعيشون عيشة الدعارة والزنى كما تعيش الخيل الصاهلة والحمر الناهقة »(١٣) ، وكتب فى عام ٧٥٦ إلى الملك إثلبولد Ethelbald يقول :

« لو أن احتقارك للزواج المشروع كان يهدف إلى الطهارة لكان أمراً محموداً ، أما وأنتم منغمسون فى الترف ، وترتكبون الزنى مع الراهبات أنفسهن ، فإن ذلك الاحتقار أمر مرذول يسربلكم العار . . . ولقد سمعنا أن نبلاء مرسية كلهم تقريباً يحذون حذوكم ، فيهجرون أزواجهم الشرعيات ، ويرتكبون الفحشاء مع الزانيات والراهبات . . . خذوا حذركم من هذا . . . إذا كانت أمة الإنجليز . . . تحتقر الزواج المشروع ، وتسارع إلى الزنى ، فلا بد أن يؤدى هذا الاتصال إلى وجود شعب دنىء يحقر الله ، وستجر الخراب والدمار على البلاد بهذا التهتك وهذه الأخلاق المرذولة » .

وكان من حق الزوج فى القرون الأولى من حكم الإنجليز — السكسون أن يطلق زوجته متى شاء وأن يتزوج غيرها . وقد نذد مجمع هرتفورد Hertford

الديني (٦٧٣) بهذه العادة ، وعمل نفوذ الكنيسة بالتدريج على تثبيت قواعد العلاقة الزوجية ، فارتفعت مكانة النساء ارتفاعاً عظيماً وإن لم يمنع هذا استرقاقهن فى بعض الأحيان . ولم يكن النساء يتلقين إلا القليل من التعليم فى الكتب ، ولكن لم يجدن فى ذلك ما يحول بينهن وبين تأثيرهن فى الرجال واجتذابهم لهن . فكان الملوك يصبرون كثيراً على مغازلة النساء المتشامخات ، ويستشيرون زوجاتهم فى السياسة العامة(١٥) . وقدظلت إثافلد ابنة ألفرد ، وهى ملكة ونائبة عن الملك ، جيلا من الزمان تحكم مرسية حكماً حازماً صالحا ، أنشأت فيه المدن ، وأحكمت وضع الخطط الحربية ، وانتزعت من الدنمرقيين دربى ، وليستر ، ويورك . ويقول عنها وليم من أهل مالمزبرى إنها عانت مشقة كبيرة حين وضعت أول طفل لها ، فأبت بعد ذلك عناق زوجها ، وقالت إنه لا يليق بابنة ملك أن تستسلم لمتعة وقتية تؤدى بعد حين إلى تلك العواقب المتعبة »(١٦) . وكانت تعيش فى مرسية وقتئذ (حوالى ١٠٤٠) جدجيفا Godgifa زوجة إيرل ليوفريك Earl Leofric . ودارت حول اسمها جديفا Godiva الذى اشتهرت به فيما بعد كثير من القصص الممتعة الجذابة ، وأقيم لها تمثال فى كوفنترى Coventry (*) .

وعانى التعليم ، كما عانى كل شىء سواه ، الأمَرَّين من جراء الفتح الإنجليزى — السكسونى ، ثم أخذ ينهض من كبوته على مهل بعد أن اعتنق الفاتحون الدين المسيحى . فقد افتتح بندكت بسكوب Benedict Biscop مدرسة فى دير ويرزموث Wearsmouth حوالى عام ٦٦٠ ، كان بيد Bede من خريجيها ؛ وأنشأ إجبرت مدرسة ومكتبة فى كنيسة يورك (٧٣٥) ، صارت أهم مركز للتعليم الثانوى فى انجلترا ، وأضحت انجلترا فى النصف الثانى من

(*) وقد ورد فى هذه القصة أن ليوفريك رضى أن يعفى المدينة من ضريبة باهظة إذا خرجت هى إلى الشوارع راكبة وعارية . والعالم كله يعرف بقية القصة .

obeikandi.com

القرن الثامن بفضل هاتين المدرستين وغيرهما من المدارس حاملة لواء التعليم في أوربا الواقعة شمال جبال الألب .

ويتجلى إخلاص معلمى الأديرة وظرفهم فى شـــخصية بيد الموقر The Venerable Bede أعظم علماء زمانه (٦٧٣ — ٧٣٥) وقد لخص هو سيرته تلخيصاً متواضعاً فقال :

بيد خادم المسيح ، قس دير الرسولين المباركين ، بطرس وبولس ، القائم فى ويرزموث وچرو . وإذ كنت قد ولدت فى إقليم ذلك الدير فقد أدخلنى أهلى فيه وأنا فى السابعة من عمرى لأربى على يدى رئيسه المبجل بندكت بسكوب ، ولقد قضيت حياتى كلها بعد ذلك الوقت فى هذا الدير ، وبذلت كل ما أستطيع من جهد لدراسة الكتاب المقدس ، والمحافظة على السنن المتبعة وترتيل الأناشيد اليومية فى الكنيسة ؛ وكنت أستمتع على الدوام بتلقى العلم أو بالتدريس أو بالكتابة . . . حتى عينت شماساً فى التاسعة عشرة من عمرى ، ثم أصبحت قساً فى سن الثلاثين . . . وبقيت من هذه السن إلى التاسعة والخمسين عاكفاً على دراســة الكتاب المقدس والأعمال الآتية . . .[١٧] .

وكلها باللغة اللاتينية ، وتشمل تعليقات على الكتاب المقدس ، ومواعظ ، وثبتا بالحوادث العالمية وتواريخها ، ورسائل فى النحو ، والرياضيات ، والعلوم ، والدين ، وأهم من هذه كلها كتابه فى *التاريخ الكنسى للأمة الإنجليزية* (٧٣١) . ويختلف هذا الكتاب الأخير عن معظم تواريخ الأديرة فى أنه ليس سجلاجاً للحوادث ؛ وربما كان فى الجزء الأخير منه مثقلا فوق ما يجب بأخبار المعجزات ، وأن صاحبه على الدوام سريع التصديق لما لا يصح تصديقه ، مدفوعاً إلى هذا بسذاجته البريئة الطاهرة ، شأن العقل الحبيس من سن السابعة ؛ ولكنه رغم هذا كله قصة واضحة خلابة ، تسمو فى أجزاء متفرقة منها إلى البلاغة

البسيطة ، كما نرى ذلك فى وصفه للفتح الأنجليسكسونى(١٨). وكان بيد رجلا مفكراً حى الضمير ، يعنى أشد العناية بتواريخ الحوادث ، وهو فى العادة دقيق فيما يورده منها ؛ يعين المراجع التى يعتمد عليها ، ويسعى للحصول على الشواهد من مصادرها الأولى ، ويقتبس مما يستطيع الوصول إليه من الوثائق الصحيحة . ومن أقواله فى هذا المعنى : « استأريد أن يقرأ أبنائى أكذوبة واحدة »(١٩) ، ونرجو أن يكون قصده بأبنائه تلاميذه السمائة الذين علمهم .. وقد توفى بعد ست سنين من كتابة سيرته الذاتية السالفة الذكر ، والتى جمع فى سطورها الختامية كل ما حوته تقوى العصور الوسطى من رقة وإيمان :

« وأتوسل إليك يا يسوع الرحيم أن تمن بفضلك على من عطفت عليه فأسقيته من كلمات علمك العذبة بأن يقبل فى يوم من الأيام عليك يا ينبوع الحكمة بأجمعها ويقف على الدوام أمام وجهك » .

ويذكر بيد أن الناس فى زمانه كانوا يتحدثون فى إنجلترا بخمس لغات : الإنجليزية ، والبريطانية (الكلتية) ، والأيرلندية ، والبكتية (الاسكتلندية) ، واللاتينية . فأما الإنجليزية فكانت لغة الإنجليز (Angles) ، ولكنها لم تكن تختلف عن اللغة السكسونية إلا قليلا ، وكان يفهمها الفرنجة ، والنرويجيون ، والدنمرقيون ، فقد كان هؤلاء الأقوام الخمسة يتكلمون لهجات مختلفة من اللغة الألمانية ، وقد نشأت الإنجليزية من اللغة الألمانية نفسها . وكان ثمة أدب أنجليسكسونى جدير بالاعتبار من القرن السابع ، وليس لنا مصدر نعتمد عليه فى تقدير معظمه إلا قطع متفرقة منه لأن جزءه الأكبر قد اندثر بعد أن أدخلت اللاتينية فى إنجلترا الحروف اللاتينية (واستبدلتها بحروف شمالى أوربا التى كانوا يكتبون بها من قبل) ، وبعد أن دمرت الفتوح الدنمرقية كثيراً من دور الكتب ، وحين غمرت الفتوح النورمندية اللغة الإنجليزية بفيض من اللغة الفرنسية . يضاف إلى هذا أن كثيراً من القصائد الأنجليسكسونية كانت قصائد

وثنية ، وكان يتناقلها جيلا بعد جيل شعراء مغنون مستهترون بعض الاستهتار في حيانهم وحديثهم ، وكان يحرم على الرهبان والقساوسة أن يستمعوا إليهم . ومع هذا فأكبر الظن أن راهباً من رهبان القرن الثامن هو الذى كتب أقدم قطعة بقيت لنا من الأدب الأنجليسكسونى — وهى شرح منظوم لسفر التكوين ليس فيه من الإلهام كما فى الأصل وقد وضع بين أبيات القصيدة ترجمة لقصة ألمانية تروى خروج آدم من الجنة . وهنا تسرى فى الشعر الحياة ، ومن أكبر أسبابها أن الشيطان يصوّر فى صورة الثائر المنفعل المتحدى ، ولعل ملتن Milon قد وجد هنا لمحة بنى عليها وصفه للشيطان فى قصيدته . ومن القصائد الأنجليسكسونية ما هو مراثٍ ؛ فقصيدة « الحائل » مثلا تتحدث عن الأيام السعيدة الخالية فى قصور الأشراف ؛ أما الآن وقد مات النبيل « فقد أقفرت هذه الأرض الثابتة كلها » وأصبح « أكثر ما يثير الأشجان أن نتذكر أسباب السعادة »(٢٠) ؛ وليس ثمة تعبير عن هذه الفكرة أجمل من هذا التعبير لا نستثنى من ذلك شعر دانتى نفسه . وأكثر ما تتغنى به هذه القصائد القديمة هو الحرب وهى حين تفعل هذا ممتعة قوية . و« أنشودة واقعة ملدون Maldon » (حوالى ١٠٠٠) لا ترى فى هزيمة الإنجليز شيئاً غير البطولة ؛ والمحارب القديم برهتود Byrhtood ، وهو واقف أمام جسد سيده القتيل « يبث الشجاعة » فى قلوب السكسون حين أحدق العدو بهم بعبارات كعبارات مالورى Malory وتسبقها فى الزمن :

كلما نقصت قوانا زادت أفكارنا صلابة ، وقلوبنا حدة ، وتضاعفت أمزجتنا . وهاهو ذا أميرنا مسجى على الأرض ، لقد قطعوه وأماتوه ! ألا فلتحل الأحزان والأشجان أبد الدهر بالرجل الذى يغادر وطيس القتال ! لقد تقدمت بى السنون ، ولكننى لن أبرح هذا المكان ؛ إنى أريد أن أرقد إلى جانب مولاى ، إلى جانب الرجل الذى أعزه(٢١) .

ونظن أن بيولف Bɛlowulf أطول القصائد الأنجليسكسونية وأنبلها قد ،

أنشئت فى القرن السابع أو الثامن ، واحتفظ بها لنا مخطوط يرجع تاريخه إلى عام ١٠٠٠ يوجد الآن فى المتحف البريطانى . ويبدو أن أبياتها البالغ عددها ٣١٨٣ بيتاً هى القصيدة بأكملها . والشعر غير مقفى ولكنه موزون متجانسة أوائل ألفاظه ، مصوغ فى لهجة سكسونيا الغربية لا نستطيع أن نفهمها فى هذه الأيام . والقصة نفسها كأنها عبث الأطفال ، وخلاصتها أن بيولف أمير القيط (القوط ؟) فى جنوبى السويد يعبر البحر ليطلق سراح هرثجار Hrothgar ملك الدنمرقة من التنين جرندل Grendel ؛ وبعد أن يغلب جرندل وأم جرندل نفسها ، يعود بطريق البحر إلى قيطلاند Geatland ويحكمها حكماً عادلا مدة خمسين عاماً . ويظهر وقتئذ تنين ثالث يقذف باللهب ويعيث فساداً فى أرض القيط ، فيهاجمه بيولف ، ويصاب فى هذا الهجوم بجرح مميت ، فيخف صديقه وجلاف Wiglaf إلى معونته ويتعاونان على قتل التنين . ويموت بيولف من أثر جرحه ، وتحرق جثته على كومة الحريق . وليست القصة من السذاجة كما تبدو لنا من روايتنا هذه ؛ فالتنين الذى تتحدث عنه آداب العصور الوسطى يمثل الحيوان البرى الذى يكمن فى الغابات المحيطة بمدن أوربا ، وفى وسعنا أن نعفو عن خيال الناس الذين صور لهم الفزع هذه الوحوش فى تلك الصورة الخرافية ، ولقد نسجوا حولها كثيراً من الأقاصيص يعبرون بها عن شكرهم للرجال الذين تغلبوا على هذه الوحوش حتى أمنت القرى والنجوع شرهم .

وبعض فقرات القصيدة مسيحية الصبغة لا تنسجم مع بقية أجزائها ، كأنما أراد ناشر رحيم من الرهبان أن يحفظ هذه القصيدة الوثنية الرائعة بأن يضع فى أجزاء منفرقة منها سطراً يشعر بالتقى والصلاح . غير أن جو القصيدة وحوادثها جو وثنى خالص وحوادث وثنية خالصة . ولقد كان الحب ، والحياة ، والمعارك الحربية على الأرض هى التى يعنى بها أولئك « النساء الحسان والرجال البواسل » ، ولم يكونوا يعنون بجنة هادئة وراء القبور . ويقول المؤلف فى بداية القصيدة بعد

أن يدفن سلد Scyld الملك الدنمرقى كما يدفن قراصنة الشمال فى قارب يدفع إلى البحر وهو خال من الملاحين : « لا يستطيع الناس أن يقولوا وهم واثقون من الذى تلقى هذا العبء » . غير أن جو القصيدة ليس بالجو الوثنى المرح ، بل تسرى فيها من أولها إلى آخرها روح نكدة ، وأكثر من هذا أن تلك الروح نفسها لا تبرح الحفلة التي أقيمت فى بهو هرثجار . وفى وسعنا أن نلمح فى ثنايا أبيات القصيدة المتدفقة وما فيها من طرب وتحسر أنين العازف على القيثار :

ثم جلس بيولف على مقعد بجوار البئر . . . وأخذ يتحدث عن جرحه ، وعما يحس به من آلام شديدة أشرف من جرائها على الموت ؛ وأدرك أن منيته قد دنت . . . ثم طاف حول كومة الدفن رجال أبطال أقران حرب ، يريدون أن يعبروا عن أحزانهم ، وأن يرثوا الملك ، وأن ينشدوا ويتحدثوا عن الرجل ؛ فأخذوا يشيدون بكل ما أوتوا من قوة ببطولته فى أثناء حياته ، ويمتدحون أعماله الباسلة المجيدة . . . ويقولون إنه كان أعظم ملوك العالم رأفة ورحمة ، وأرقهم فى معاملة شعبه ، وأحرصهم على كسب الثناء . . . ومن أجل هذا كان خليقاً بالإنسان أن يثنى على سيده وصديقه . . . وأن يحبه بكل قلبه ، إذا ما حان أجله ، وفارقت روحه جسده ، وغادر هذا العالم .

وأكبر الظن أن **بيولف** أقدم ما بقى لدينا من القصائد فى أدب بريطانيا ، ولكن كيدمون Coedmon (المتوفى سنة ٦٨٠) هو أقدم الأسماء فى هذا الأدب . ولسنا نعرفه إلا من فقرة طريفة فى كتاب بيد ، فقد جاء فى كتاب **التاريخ الكنسى**[٢٣] أنه كان فى دير هوتبى Whitby أخ ساذج يجد فى الغناء من الصعوبة ما يحمله على الهرب إلى مكان يختبئ فيه كلما جاء دوره فى الغناء. وخيل إليه ذات ليلة وهو نائم مستقر فى مرقده أن ملكا قد جاءه وقال له : « غن لى شيئاً يا كيدمون ! » فقال الراهب إنه لا يستطيع الغناء ، فأمره الملك أن يغنى ؛ وحاول كيدمون الغناء ، ولشد ما دهش من نجاحه ، ولما استيقظ فى

الصباح تذكر الأغنية ، وأعاد غناءها ؛ ولهذا أخذ يحاول قرض الشعر ونظم سفرى التكوين ، والخروج ، والأناجيل شعرا « صاغه » كما يقول بيد « بألفاظ عذبة تأخذ بمجامع القلوب » . ولم يبق من هذه الأشعار كلها إلا أبيات قليلة ترجمها بيد إلى اللغة اللاتينية . وبعد عام من ذلك الوقت حاول سينولف Cynewulf (ولد حوالى عام ٧٥٠) وهو شاعر مغن فى بلاط نورثمبرلند أن يخرج هذه الرواية إلى حيز الوجود بأن ينظم عدة قصص دينية مختلفة — « المسيح » و « أندرياس Andreas » و « يوليانا » ، ولكن هذه القصص تبدو ، إذا ما قورنت بقصة بيولف المعاصر لها ، ميتة لا حياة فيها لكثرة ما بها من الصناعة والمحسنات اللفظية .

ويجىء النثر الأدبى فى جميع الآداب بعد الشعر فى الترتيب الزمنى ، لأن العقل ينضج قبل أن تتفتح أزهار الخيال ، مع أن الناس ينطقون بالنثر قروناً « وهم لا يعرفون » قبل أن يتسع لهم وقتهم أو يمكنهم غرورهم من أن يصوغوه فنا من الفنون . وأوضح شخصية فى نثر إنجلترا الأدبى هى شخصية ألفرد ، فتراجمه ومقدماته يضفى عليها الإخلاص والبساطة كثيراً من البلاغة ، وهو الذى بذل من الجهد فى نشر « ملف الأسقف Bishop's Roll » الذى كان محفوظا عند قساوسة كنيسة ونشستر ، فاستحال على يديه أقوى وأوضح أقسام *السجل الأنجليسكسونى* أول كتاب قيم فى النثر الإنجليزى . وليس ببعيد أن يكون معلمه أسر Asser هو الذى كتب الجزء الأكبر من *حياة ألفرد* ، أو لعل هذه السيرة قد جمعت فيما بعد (حوالى عام ٩٧٤) ؛ ومهما يكن من شأنها فهى مثل من أقدم الأمثلة على استعداد الإنجليز لاستبدال اللغة الإنجليزية باللغة اللاتينية فى الكتب التاريخية والدينية ، على حين أن « القارة » الأوربية التى كانت لا تزال تستحى من أن تكتب مثل هذه المؤلفات الكريمة باللغة « العامية » .

ولقد وجد الناس بين مشاغل الشعر والحرب من النشاط والوقت ما يمكنهم

من تصوير المعانى ، وتجميل الأشياء ذات النفع المادى . فقد أنشأ ألفرد مدرسة للفن فى أثلنى Alhelney ، واستقدم إليها من جميع الأنحاء رهباناً يحذقون الفنون والصناعات ، « ولم ينقطع فى أثناء حروبه الكثيرة » كما يقول أسر « عن أن يعلّم عماله فى صناعة الذهب وصناعه فى جميع الحِرف »(٢٥). ولم يقنع دنستان Dunstan بأن يكون من رجال الحكم والقديسين ، فأخذ يمارس بجد صناعتى الحديد والذهب ، وكان إلى هذا موسيقيا بارعا ، صنع لكنيسة جلاستنبرى أرغناً ذا مزامير . وقامت فى البلاد الصناعات الفنية الدقيقة فى الخشب ، والمعادن ، والميناء المقسمة ، واشترك قاطعو الجواهر مع الحفارين فى صنع الصلبان المنحوتة والمطعمة بالجواهر فى رثول Ruthwell وبيو كاسل Bewcastle (حوالى عام ٧٠٠) ؛ وصب تمثال من الشبه للملك كدولو Cadwallo (المتوفى سنة ٦٧٧) ممتط صهوة جواد بالقرب من لدجيت Ludgate . وكانت النساء ينسجن أغطية الفراش ، والأقمشة التى تزدان بها الجدران ، والمطرزات ، من الخيوط البالغة غاية الدقة(٢٦) . وزخرف رهبان ونشستر بالرسوم ذات الألوان الزاهية كتاب أدعية فى القرن العاشر . وشادت ونشستر نفسها ويورك كنائس من الحجر منذ عام ٦٣٥ ؛ وجاء بندكت بسكوپ بالطراز اللمباردى إلى إنجلترا من الكنيسة التى أقامها فى ويرزموث عام ٦٧٤ ؛ وأعادت كنتربرى فى عام ٩٥٠ بناء الكنيسة التى بقيت فيها من أيام الرومان . وينقل لنا بيد أن كنيسة بندكت بسكوپ قد ازدانت بالنقوش المصنوعة فى إيطاليا ، « وأن كل من دخلها ، وإن كان جاهلا لا يعرف شيئاً من العلوم والمعارف ، لا يسعه أينما ولى وجهه إلا أن يتأمل مناظر المسيح وقديسيه التى لا يبلى جمالها . . . وأن يذكر وهو يرى أمام عينيه صورة يوم الحساب أن من واجبه محاسبة نفسة حساباً عسيراً »(٢٧) . وقصارى القول أن القرن السابع قد شهد نهضة فى البناء فى بريطانيا ؛ ذلك أن الأنجليسكسون كانوا قد أتموا فتوحهم ، والدنمرقيون لم يبدءوها ، وأصبح البناءون الذين كانوا من قبل يبنون

بالخشب يجدون لديهم الموارد والعزائم التى تمكنهم من تشييد الأضرحة والمعابد بالحجارة . ولكننا يجب ألا ننكر أن بندكت قد استقدم من غالة البنائين ، وصانعى الزجاج ، وصائغى الذهب ؛ وأن الأسقف ولفرد Wilfrid قد جاء بالمثالين والنقاشين من إيطاليا لزخرفة كنيسته التى شادها فى هكسهام Hexham فى القرن السابع ؛ وأن إنجيل لندسفارن Lindisfarne (حوالى عام ٧٣٠) ذا الزخرف الجميل كان من عمل رهبان أيرلنديين دفعهم فرط زهدهم أو تحمسهم للتبشير إلى تلك الجزيرة القفرة القريبة من ساحل نورثمبرلاند . وقضى مجىء الدنمرقيين على هذه النهضة القصيرة الأجل ، ولم يواصل فن العمارة الإنجليزية الصعود إلى ما بلغه بعدئذ من العظمة والجلال حتى استقر سلطان الملك كنوت فى إنجلترا على أساس مكين .

٣ — بين فتحين ١٠١٦ — ١٠٦٦

لم يكن الملك كنوت فاتحاً وكفى ، بل كان إلى هذا حاكما قديراً . ولسنا ننكر أنه لوث بداية حكمه بأعمال القسوة : فقد طرد من البلاد أبناء إدمند إيرنسيد Edmund Ironside وأمر بذبح أخى إدمند ليمنع بذلك عودة الملوك الأنجليسكسون إلى العرش . لكنه لما رأى أن أرملة إثلرد وأبناءه لا يزالون أحياء فى رون Rouen ، تغلب على كثير من المشاكل بأن خطب إما Emma لنفسه (١٠١٧) . وكانت هى وقتئذ فى الثالثة والثلاثين من عمرها ، وقبلت الخطبة وحصل كنوت بضربة واحدة على زوجة ، وحلف مع دوق نورمندية أخى إما ، وعلى عرش مكين أمين . وأصبح عرشه من تلك اللحظة نعمة على إنجلترا وبركة . فقد كبح جماح الأعيان المشاكسين الذين حطموا روح إنجلترا وفرقوا وحدتها ، ووقى البلاد شر الغزاة فى المستقبل ، ووهبها اثنى عشر عاماً من السلم غير المنقطعة . واعتنق الملك الدين المسيحى ، وشاد كثيراً من الكنائس ، وأقام نصباً تذكارياً

فى أسندون Assandun إحياء لذكرى الأنجليسكسون والدنمرقيين الذين حاربوا فى ذلك المكان ، وحج بنفسه إلى قبر إدمند ، ووعد بأن يتبع قوانين انجلترا وأنظمتها القائمة فيها ، ووفى بوعده فيما عدا حالتين اثنتين : فقد أصر على أن تكون حكومة المقاطعات التى أفسدها الأعيان الأنوقراطيون تحت سيطرة عملائه هو ، واستبدل بكبير الأساقفة وزيراً من غير رجال الدين ليكون كبير مستشارى التاج ، وأنشأ طائفة من العمال الإداريين والموظفين المدنيين كان لهم الفضل فى جعل حكومة البلاد ثابتة مستمرة ؛ وكان عماله كلهم تقريباً ، بعد سنى حكمه الأولى المزعزعة ، من الإنجليز . وقد جمع بين تاجى الدنمرقة وانجلترا ، ثم أصبح فى عام ١٠٢٨ ملكاً على النرويج ، ولكنه كان يحكم مملكته الثلاثية من مدينة ونشستر .

وكان الغزو الدنمرقى حلقة فى سلسلة الغزوات الأجنبية الطويلة وفى الامتزاج العنصرى اللذين انتهيا بالفتح النورمندى وأنتجا آخر الأمر الشعب الإنجليزى . فقد امتزجت دماء الكلت والغاليين ، والإنجليز والسكسون والجوت ، والدنمرقيين والنورمان ، بالزواج أو بغيره من الوسائل ، فخلقت من البريطانيين أهل البلاد فى زمن الرومان ، وهم الذين ليست لهم ميزة ولا قدرة على الابتكار ، خلقت منهم قراصنة عهد الملكة إلزبث الصخابين ، وفاتحى العالم الصامتين فى القرون التالية . ولقد جاء الدنمرقيون إلى انجلترا ، كما جاء إليها الألمان وأهل الشمال ، بحب للبحر يكاد يبلغ درجة الوجد والهيام ، واستعداد لقبول دعوة البحر الغادرة إلى المغامرة والاتجار فى أقاصى البلاد . أما من الجهة الثقافية فقد كانت غزوات الدنمرقيين كارثة على البلاد ، وقف فى أثنائها فن البناء فلم يخط خطوة إلى الأمام ، واضمحل فن زخرفة الكتب فيما بين عامى ٧٥٠ ، ٩٥٠ ؛ كما وقفت النهضة العلمية والأدبية التى شجعها ألفرد ، وفعلت غزوات الشماليين ما فعلته فى غالة نفسها فأخذت تقضى على أعمال شارلمان المجيدة .

ولو أن أجل كنوت طال لأمكنه أن يصلح الأضرار التى أنزلها مواطنوه بالبلاد ، ، ولكن شئون الحرب والحكم تبلى الناس سراعاً ، فلقد مات كنوت عام ١٠٣٥ ولما يتجاوز سن الأربعين ؛ وخلعت النرويج نير الدنمرقيين على الفور ، واضطر هارثكنوت Harthacnut بن كنوت الذى عينه قبل موته ولياً لعهده أن يكرس كل جهوده لحماية الدنمرقة من غزو النرويجيين ؛ وحكم ابن آخر من أبنائه يدعى هرلد هيرفوت Herald Harefoot إنجلترا خمس سنين ؛ ثم مات ؛ وحكمها هارثكنوت عامين توفى بعدها سنة ١٠٤٢ ؛ واستدعى من نورمنديا قبل وفاته ابن إثرل وإما الباقى على قيد الحياة ، واعترف بهذا الأخ الأنجليسكسونى غير الشقيق وارثاً لعرش انجلترا .

ولكن إدورد المعترف Edward the Confessor (١٠٤٢ — ١٠٦٦) كان غريباً عن البلاد بقدر ما كان أى دنمرقى آخر غريباً عنها . فقد نقله أبوه إلى نورمندية وهو فى العاشرة من عمره ، وقضى ثلاثين عاماً فى بلاط النورمنديين ، وتربى على أيدى أعيانهم وقساوستهم ونشأوه على التقى والصراحة . وجاء الملك الجد إلى انجلترا بلغته وعاداته الفرنسية وأصدقائه الفرنسيين ، وأصبح هؤلاء الأصدقاء من كبار موظفى الدولة ورؤسائها الدينيين ، وتلقوا هبات ملكية ، وشادوا فى انجلترا قصوراً نورمندية منيعة ، ولم يخفوا ازدراءهم للغة الإنجليزية وأساليب الحياة الإنجليزية ، وبدءوا الفتح النورمندى قبل وليم الفاتح بجيل من الزمان .

ولم يكن يستطيع أن ينافسهم فى التأثير فى الملك الرقيق المطواع إلا رجل واحد هو إيرل جدون Earl Godwin حاكم وسكس ومستشار الدولة الأول فى عهد كنوت وهرلد وهارثكنوت. وكان إيرل جدون واسع الثراء حكيما ، داهية فى الديبلوماسية صبوراً عليها ، فصيح اللسان ، قوى الحجة ، بارعاً فى الأعمال الإدارية ؛ فكان بذلك أول الساسة العظام من غير رجال الدين فى التاريخ

الإنجليزى . وقد رفعت تجاربه فى شئون الحكم منزلته فوق منزلة الملك تفنسه . وأضحت ابنته إديث Edith زوجة إدورد ، ولولا أن إدورد لم يكن له خلف لكان من المحتمل أن يصبح جدون جد ملك من الملوك . ولما أن تزوج تستج Tostig ابن جدون يوديث Judith ابنة كونت فلاندرز ، وأصبح سوين Soweyn ملكا على الدنمرقة أنشأ إيرل جدون بهذه الصلات الزوجية حلفاً ثلاثيا جعله أقوى رجل فى أوربا الشمالية كلها لا نستثنى من ذلك التعميم مليكه نفسه . لكن أصدقاء إدورد النورمنديين أثاروا فى نفسه عوامل الغيرة ، فعزل جدون ، وفرّ الإيرل إلى فلاندرز ، كما خرج ابنه هرولد Harold إلى أيرلندة وحشد فيها جيشا ليقاتل به إدورد المعترف (١٠٥١) . ولم يكن أعيان الإنجليز راضين عن سيادة النورمنديين عليهم ، فطلبوا إلى جدون أن يعود ، ووعدوه بتأييد جنودهم له . وغزا هرولد إنجلترا ، وهزم جيوش الملك ، ونهب ساحل إنجلترا الجنوبى الغربى وعاث فى أرضه فساداً ، ثم انضم إلى والده وزحفا معاً إلى أعالى نهر التاميز ، وثار الشعب فى لندن على حكامه واستقبل الغزاه بالترحاب ، وفرّ الموظفون ورجال الدين النورمنديون ، واجتمع وتناجور (مجلس) من أعيان الإنجليز وأساقفتهم ، واستقبل جدون استقبال الظافرين ؛ واسترد جدون سلطانه السياسى وما صودر من أملاكه (١٠٥٢) ، ولكنه مات بعد عام واحد بعد أن أنهكه الاضطراب والنصر .

وعُيِّن هرولد إيرل وسكس ، وخلف أباه فى بعض ما كان له من سلطان . وكان وقتئذ فى الحادية والثلاثين من عمره ، طويل القامة ، بهى الطلعة ، قوى البنية ، شهماً ، مقداماً جريئاً ، قاسياً فى الحرب ، كريماً فى السلم ، شن حملة جريئة خاطفة على ويلز انتهت بضمها إلى إنجلترا ، وقدم رأس جروفيد Gruffydd زعيم ويلز هدية إلى الملك المسرور المروع (١٠٦٣) . وفى فترة هادئة من حياته العاصفة جاد بالمال الكثير لبناء كنيسة ولتام Waltham (١٠٦٠) ، وإعانة

الكلية التى نشأت من مدرسة هذه الكنيسة ، واتجهت أنظار إنجلترا كلها إلى هذا الشاب الذى لا يفترق فى شىء عن أبطال الروايات .

وأهم ما حدث فى عهد إدورد من الناحية المعمارية هو الشروع فى بناء دير وستمنستر (١٠٥٥) . وكان الملك قد أَلِفَ الطراز المعمارى النورمندى أثناء حياته فى رُوَن Rouen ، فلما أن أمر ببناء الدير الذى أصبح فيما بعد مزاراً مقدساً ومقبرة لعباقرة إنجلترا ، أمر أو أجاز أن يقام على الطراز النورمندى الرومانسى على نسق كنيسة الدير العظيمة التى بدىء فى تشييدها قبل ذلك الوقت بخمس سنين لا أكثر فى چوميىچ Jumièges ، وكان هذا أيضاً فتحاً نورمنديا قبل أيام وليم . وكان بناء دير وستمنستر إيذانا ببداية نهضة معمارية أوجدت فى إنجترا أجمل المبانى الرومانسية فى أوربا بأجمعها .

وفى مقبرة وستمنستر دفن إدورد فى بداية سنة ١٠٦٦ ذات الأحداث الجسام . واجتمع الويتنأجمور فى السادس من يناير واختار هرولد ملكا على إنجلترا . وما كاد التاج يوضع على رأسه حتى جاءت الأخبار بأن وليم دوق نورمندية يطالب بالعرش ويستعد للحرب . وكانت حجة وليم أن إدورد قد وعده فى عام ١٠٥١ أن يوصى له بتاج إنجلترا جزاء له على إيوائه وحمايته فى نورمندية ثلاثين عاما . ويخيل إلينا أن هذا الوعد قد بذل حقاً[٢٨] ؛ ولكن إدورد إما أن يكون قد نسيه ، وإما أنه ندم على ما بذله ، فأوصى قبل وفاته بقليل أن يخلفه هرولد على عرش إنجلترا . وسواء كان هذا أو ذاك فإن هذا الوعد لم تكن له قيمة إلا إذا أقره الويتان Witan ؛ ولكن هرولد — كما يقول وليم — قد قبل منه مرتبة الفروسية أثناء زيارة له فى رون (فى تاريخ لا نعرفه الآن) ، فأصبح بذلك « رجل » وليم يدين له بالطاعة حسب قانون الإقطاع ، وأنه وعد بأن يعترف به وارثاً لعرش إدورد ويؤيده فى المطالبة به . واعترف هرولد بهذا الوعد[٢٩] ولكن قسَمَه أيا كان لم يكن من شأنه فى هذه المرة أيضاً أن يقيد الأمة الإنجليزية بشىء ،

فاختاره ممثلو تلك الأمة بكامل حريتهم ملكاً عليهم ، واعتزم هرولد أن يدافع عن ذلك الاختيار . ولجأ وليم إلى البابا ، وحكم الكسندر الثانى بناء على مشورة هلدبراند Hildebrand بأن هرولد مغتصب ، وحرمه هو ومناصريه من الكنيسة المسيحية ، وأعلن أن وليم صاحب الحق الشرعى فى عرش إنجلترا ، وبارك غزوة وليم المرتقبة ، وبعث إليه بعلم مدشن وخاتم يحتوى على شعرة من رأس القديس بطرس فى داخل ماسة(٣٠) . وقد سَرّ هلدبراند أن يجعل هذه الحادثة سابقة لتصرف البابوات فى عروش الملوك وفى خلعهم ، وطبق هذه السابقة بالفعل بعد عشر سنين من ذلك الوقت على هنرى الرابع ملك ألمانيا ، ولم تكن ثمة صعوبة فى استخدامها مع الملك جون عام ١٢١٣ . وانضم لانفرانك رئيس دير بك إلى وليم فى دعوة أهل نورمندية — أو على الأصح أهل جميع الأقطار — لشن حرب مقدسة على الملك المحروم .

ولاقى هرولد فى كهولته الحيرة جزاء ما ارتكبه فى شبابه من آثام . ذلك أن أخاه تستج الذى نفاه الويتان من زمن بعيد لم يستدعه هرولد من منفاه بعد أن آل الأمر إليه ، ولهذا انضم تستج إلى وليم ، وحشد جيشاً فى شمال البلاد ، وأقنع هارلد هاردرادا Harald Hardrada ملك النرويج بأن ينضم إليه ، ووعده فى نظير ذلك بعرش إنجلترا . وبينما كانت عمارة وليم البحرية المؤلفة من ١٤٠٠ سفينة تقلع من نورمندية إذ أغار تستج وهاردرادا على نورثمبرلند . واستسلمت لهما مدينة بورك ، وتوج فيها هاردرادا ملكاً على إنجلترا ، وأسرع إليه هرولد بمن معه من الجند وهزَم الغزاة من الشمال عند جسر استامفورد Stamford Bridge (فى ٢٥ سبتمبر) ، وقتل فى هذه الواقعة تستج وهاردرادا ، ثم اتجه هرولد نحو الجنوب ومعه قوة قليلة يعجز لقلتها عن الوقوف فى وجه جيش وليم ، وأشار عليه جميع ناصحيه بالتريث . ولكن وليم كان يحرق إنجلترا الجنوبية ويخربها تخريباً ، وكان هرولد يحس بأن من واجبه أن يحمى الأرض التى خربها هو من قبل والتى أصبح

يحبها اليوم . والتقى الجيشان عند سنلاك Senlac بالقرب من هيستنجس Hastings (١٤ اكتوبر) ونشبت بينهما معركة دامت تسع ساعات . واخترق أحد السهام عين هرولد فأعماه الدم ، ووقع على الأرض ، ومزق فرسان النورمنديين جسمه تمزيقاً ، فقطع أحدهم رأسه ، وآخر ساقه ، ونثر ثالث أحشاء هرولد فى ميدان القتال . ولما رأى الإنجليز قائدهم يخر صريعاً ولوا الأدبار ؛ وأعقبت هذه الهزيمة مذبحة وفوضى بلغ من هولها أن الرهبان الذين كلفوا فيما بعد بالبحث عن جثة هرولد لم يعثروا عليها إلا بعد أن جاءوا إلى الميدان بإديث سوانزنك Edith Swansneck التى كانت عشيقته ، فتبينت جثة عشيقها المبتورة الأطراف ، ودفنت قطعها فى كنيسة ولتام التى بناها فى حياته . ثم توج وليم الأول ملكاً على إنجلترا فى يوم عيد الميلاد من عام ١٠٦٦ .

الفصل الثانى

ويلز ٥٢٥ — ١٠٦٦

فتح فرنتينس Frontinus وأجركولا Agrtcola بلاد ويلز وضماها إلى رومة فى عام ٧٨ م . ولما انسحب الرومان من بريطانيا استردت ويلز حريتها ، وخضعت على كره منها لحكم ملوكها . واحتل غربى ويلز مستعمرون أيرلنديون فى القرن الخامس ، ثم جاء إليها فيما بعد آلاف من البريطانيين فارين من الأنجليسكسون الذين فتحوا جزيرتهم . ووقف زحف الأنجليسكسون أمام الحواجز القائمة عند حدود ويلز وأطلقوا على الشعب الذى لم يخضعوه اسم ويلهاس Wealhas — « الأجانب » . ووجد الأيرلنديون والبريطانيون فى ويلز سلالة كلتية من جنسهم ، وسرعان ما امتزجت الطوائف الثلاثة وأضحت سمرو Cymru « أبناء وطن واحد » . وصار هذا هو اسمهم كما صار لفظ سمرو Cymru اسم بلادهم . وكان هؤلاء الأقوام يقيمون نظامهم الاجتماعى كله على أساس الأسرة والعشيرة شأنهم فى هذا شأن معظم الشعوب الكلتية — البريطانيين ، والكورنيين Cornish (سكان كورنوول الحالية » ، والأيرلنديين ، والجيليين Gaels سكان شمالى إسكتلندة ، وقد بلغ من حرصهم على هذا النظام أن أصبحوا يأنفون وجود دولة تضمهم ، ويرتابون أشد الارتياب فى كل شخص أو شعب يجرى فى عروقه الدم الأجنبى . ولم يكن سخاؤهم وإكرامهم للضيف أقل قوة من نزعتهم القبلية ، كما لم تكن شجاعتهم تقل عن عدم خضوعهم للنظام ، ولا حياتهم الشاقة وجو بلادهم القارس يقلان عن حبهم للموسيقى والغناء والوفاء للأصدقاء ، ولا فقرهم عن عاطفتهم القوية وخيالهم الواسع اللذين جعلا من كل فتاة أميرة ومن نصف الرجال ملوكا .

ولم يكن يعلو على منزلة الشعراء المنشدين إلا الملوك أنفسهم. ولم يكن هؤلاء

الشعراء هم عرافى شعبهم ومؤرخيه ومستشارى ملوكه فحسب ، بل كانوا إلى ذلك شعراءه . وقد خلد الزمان اسمى اثنين من هؤلاء الشعراء هما تليزن Talesin وأنورين Aneurin ؛ وقد عاش كلاهما فى القرن السادس الميلادى . وكان هناك مئات غيرهما ، وعبرت القصص التى نسجوا بردها القناة الإنجليزية إلى بريطانى ، ووصلت فى صورة مصقولة إلى فرنسا . وكون هؤلاء المنشدون طبقة من الشعراء الدينيين ، لم يكن يسمح لأحد أن ينتمى إليها إلا بعد مران صارم دقيق فى معارفه . وكان كل من يريد الدخول فى زمرتهم يسمى ما بينوج Mabinog ، وكانت الموضـــوعات التى يدرسها تسمى ما بينوجى Mobinogi ، ولهذا أطلق اسم ما بيتوجيون Mabinogion على ما بقى من قصصهم(٣١) . ولا ترجع هذه القصص فى صورتها الحالية إلى ما قبل القرن الرابع عشر ، ولكن أغلب الظن أنها ترجع إلى ذلك الوقت الذى لم تكن فيه المسيحية قد دخلت بلاد ويلز . وهى قصص بدائية ساذجة ذات نزعة وثنيه تشهد بأن الأهلين كانوا من عباد الطبيعة ، مليئة بالحيوانات الغريبة والحادثات المدهشة ، يسودها جو نكد من النفى ، والهزيمة ، والموت ؛ ولكنها ذات مزاج رقيق بعيد كل البعد عن الشهوانية والعنف .االذين نشهدهما فى قصص الإدا Eddas الأيسلندية Icelandic ، والساجا Sagas خرافات أهل الشمال ، والنيبيلنجنليد Nibelungelied . وقد نشأ فى عزلة جبال ويلز أدب خيالى يفيض بالولاء للأمة ، والإخلاص فيما بعد لعيسى ومريم . وكان لهذا الأدب شأن فى نشأة الفروسية ، والقصص العجيبة التى تتحدث عن الملك آرثر Arthur وفرسانه العشاق البواسل الذين أقسموا أن « يقضوا على الوثنيين ويقيموا دين المسيح » .

ودخلت المسيحية ويلز فى القرن السادس ، وما لبثت بعد دخولها أن افتتحت المدارس فى الأديرة والكنائس . وقد جاء الأسقف العالم أسر الذى كان أمين سر الملك ألفرد وكاتب سيرته من مدينة سانت داڤد وكنيسته فى مقاطعة بمبروك

Pembrokeshire . وتحملت هذه المزارات والمستقرات المسيحية الهجمات الأولى للقراصنة النورمنديين حتى طردهم الملك رودرى الأكبر Rhodri (٨٤٤ — ٨٧٨) وأنشأ فى الجزيرة أسرة ملكية قوية . ووحَّد الملك هيول لصالح Hywel The Good (٩١٠ — ٩٥٠) ويلز كلها ووضع لها قانوناً موحداً منظماً . ولاقى جرفيد آب ليولين Grulfydd ab Llywelyn (١٣٠٩— ١٠٦٣) من النجاح أكثر مما كان يجب أن يلقاه ؛ فلما أن هزم مرسية Mercia أقرب المقاطعات الإنجليزية إلى ويلز ، أعلن عليه هرولد ، الذى أصبح فيما بعد ملكاً على إنجلترا ، حرباً دفاعية لصد عدوانه ، وفتح بلاد ويلز ، وضمها إلى بريطانيا (١٠٦٣) .

الفصل الثالث

الحضارة الأيرلندية ٤٦١ — ١٠٦٦

كانت أيرلندة فى الفترة الواقعة بين موت القديس پاترك والقرن الحادى عشر مقسمة إلى سبع ممالك ، منها ثلاث فى ألصتر Ulster ، أما الباقية فهى كنوت Connought ، ولينستر Leinster ، ومنستر Munster ؛ وميث Meath . وكانت هذه الممالك تحارب بعضها بعضاً فى أغلب الأوقات لأنها لم تستطع الانتقال إلى آفاق من الحياة أوسع من آفاقها الضيقة ؛ ولكننا نسمع من بداية القرن الثالث الميلادى عن غارات يشنها الأيرلنديون على السواحل البريطانية الغربية ، وعن محلات أيرلندية فى هذه السواحل . ويسمى الإخباريون هؤلاء المغيرين بالاسكتلنديين Scots — ويبدو أن هذا اللفظ لفظ أيرلندى معناه الجوالون ؛ وإذا ذكر هذا اللفظ متصلا بهذه الفترة من الزمن فمعناه الأيرلنديون . ولم تنقطع الحروب فى أثنائها ؛ وظلت النساء حتى عام ٥٩٠ يُطلبن إلى الاشتراكِ فى القتال ، والرهبان والقساوسة يدعون إليه إلى جانب غيرهم ممن هم أكثر اعتياداً له ، وكان ثمة قانون يماثل فى جوهرة قوانين « البرابرة » الذين يسكنون القارة الأوربية ، ويشرف على تنفيذ البريهون Brehons — وهم قضاة من رجال القانون مدربون أحسن تدريب ، كانوا منذ القرن الرابع يعلّمون فى مدارس الحقوق ويؤلفون رسائل قانونية باللغة الجيلية Gaelic[٣٣] .

ونجت أيرلندة كما نجت اسكتلندة من الفتوح الرومانية ، ولهذا فإنها لم تتح لها نعمة الاستمتاع بالقانون الرومانى وبالحكومة المنظمة ، فلم يفلح قانونها يوما من الأيام فى استبدال الأحكام القضائية بعادات الثأر والانتقام ، أو التأديب بالانفعال . وظلت الحكومة قائمة على الأساس القبلى ، ولم تفلح قط فى

تحقيق الوحدة القومية أو النظرة القومية الشاملة .

وكانت الأسرة هى الوحدة التى يقوم عليها المجتمع وشئونه الاقتصادية ، ويتألف من عدة أسر بطن ، ومن عدة بطون عمارة ، ومن عدة عمائر قبيلة . وكان المفروض أن جميع أفراد القبيلة أبناء رجل واحد ، وأخذت كثير من الأسر تضيف اسم القبيلة التى تنتمى إليها Ui أو O' (حفيد) للدلالة على نسبها ، فأسرة أونيل مثلا تقول إنها تنسب إلى نيال جلندبه Mial Glundubh ملك أيرلندة فى عام ٩١٦ . واتخذت أسر أخرى لنفسها اسم أبيها ولم تضف إليه إلا لفظ ماك Mac أى ابن . وكانت معظم الأراضى فى القرن السابع ملكاً مشتركاً للبطون أو العمائر(٣٤) ، وكانت الأملاك الفردية الخاصة مقصورة على الأدوات والبضائع المنزلية(٣٥) ؛ ولكن الملكية الفردية انتشرت فى البلاد قبل أن يحل القرن العاشر الميلادى ، وسرعان ما نشأت طبقة أرستقراطية صغيرة العدد يمتلك أفرادها ضياعاً واسعة ، كما نشأ عدد لا حصر له من الزراع الأحرار ، وطبقة صغيرة من مستأجرى الأرض ، وطبقة أخرى من العبيد أصغر عدداً من أولئك المستأجرين(٣٦) . وظل الأيرلنديون فى القرون الثلاثة التى أعقبت دخول المسيحية فى البلاد (٤٦١ — ٥٧٠) متأخرين عن الإنجليز من الناحيتين المادية والسياسية ، أما من الناحية الثقافية فقد كانوا فى أغلب الظن أرقى جميع الشعوب التى تسكن فى شمال جبال البرانس والألب .

ويرجع هذا الاختلاف العجيب بين الناحيتين المادية والسياسية من جهة والناحية الثقافية من جهة أخرى إلى أسباب كثيرة : تدفق العلماء الغاليين والبريطانيين الفارين من الغارات الألمانية فى القرن الخامس ، وازدياد الصلات التجارية بالبريطانيين والغاليين ، ونجاة أيرلندة قبل القرن التاسع من الهجمات الأجنبية . وقد افتتح فيها الرهبان ، والقساوسة ، والراهبات مدارس كثيرة مختلفة الأنواع والدرجات ؛ منها مدرسة فى كلونارد Clonard أنشئت فى

عام ٥٢٠ كانت تضم ٣٠٠٠ طالب (إذا أخذنا بأقوال المؤرخين المشايعين لوطنهم(٣٧)) ؛ ومدارس أخرى فى كلنما كنويس Clonmacnois (٥٤٤) ، وكلنفرت Clonfert (٥٥٠) ، وبنجور Bangor (٥٦٠) . وكان عدد غير قليل من هذه المدارس يعد للطلاب مناهج تستمر اثنى عشر عاماً تؤدى إلى درجة الدكتوراه فى الفلسفة ، وتشمل دراسات للكتاب المقدس ، وأصول الدين ، والآداب اللاتينية واليونانية القديمة ، ونحو اللغة الجيلية وآدابها ، وعلوم الرياضة والهيئة ، والتاريخ والموسيقى ، والطب والقانون(٣٨). وكان ينفق على فقراء الطلبة ممن لا يستطيع آباؤهم أن يعولوهم من الأموال العامة ، لأن كثرة الطلبة كانت تعد نفسها لخدمة الدين ، ولهذا لم يكن الأيرلنديون يضنون بأى بذل فى سبيل إعداد الطلاب لهذه المهنة . وظلت هذه المدارس تدرس اللغة اليونانية بعد أن كاد العلم بهذه اللغة يختفى من أوربا الغربية بزمن طويل . وقد درس ألكوين فى مدرسة كلنما كنويس ، وفى أيرلندة تعلم جون اسكوتس إرچينا John Scotus Erigena اللسان اليونانى الذى جعله موضع إعجاب شارل الأصلع فى فرنسا .

وكان مزاج هذا العصر وآدابه يساعدان على نشأة الأقاصيص والروايات الغرامية ، لكن بعض العقول كانت تتجه إلى العلوم الطبيعية فى أماكن متفرقة من البلاد ، نذكر من أصحاب هذه العقول دنجال Dungal العالم الفلكى ، وفرجيل Fergil العالم فى الهندسة النظرية الذى علم قومه أن الأرض كروية ، ودكويل Dicuil العالم الجغرافى الذى أعلن كشف أيسلندة على أيدى الرهبان الأيرلنديين فى عام ٧٩٥ ؛ والذى أوضح شدة الضوء فى منتصف ليالى الصيف الأيرلندى بقوله إن فى وسع الإنسان أن يجد وقتئذ من الضوء ما يمكنه من تنقية البراغيث من قميصه(٣٩) . وكان النحويون كثيرى العدد ، ويكفى سبباً لهذه الكثرة أن علم العروض فى أيرلندة كان فى ذلك الوقت أكثر تعقيداً منه فى أى مكان آخر . كذلك كان الشعراء كثيرين ، وكانت لهم فى المجتمع منزلة عالية ،

وكانوا فى العادة يجمعون إلى قرض الشعر وكتابة التواريخ وظائف التدريس والمحاماة ويجتمعون فى مدارس للشعر حول شاعر نابه ، ولهذا ورثوا كثيراً مما كان للكهنة الدرويد Druid قبل دخول المسيحية فى البلاد من سلطات وامتيازات خاصة . وظلت مدارس الشعراء هذه مزدهرة من القرن السادس إلى القرن السابع عشر دون انقطاع ، وكانت تعتمد فى العادة على ما تهيئه لها الكنيسة أو الدولة من أرضين(٤٠) . وازدان القرن العاشر بأربعة شعراء قوميين مشهورين : فلان ماك لونين Flann Mac Lonain ، وكنث Kenneth ، وأهارتجان O'Hartigan ، وإيوكيد أفلين Eochaid 'Flainn ، وماك لياج Mac Liag الذى اتخذه الملك بريان بورو Brain Boru شاعر بلاطه .

واتخذت قصص أيرلندة فى ذلك العصر صورة أدبية ، وكان جزء كبير من مادة هذه القصص متداولا قبل أيام پتريك ، ولكن الناس كانوا يتناقلونها شفويا ثم صيغت وقتئذ قالب من النثر الموزون ، والشعر الغنائى ، وما من شك فى أن شعراء ذلك العصر هم الذين وضعوها فى قالبها الأدبى ، وإن لم تصل إلينا مخطوطة إلا بعد القرن الحادى عشر . ومن هذه القصص طائفة متصلة الحلقات تخلد ذكرى آباء الشعب الأيرلندى الأسطوريين . فمنها طائفة « فِنِّية Fenian » أو « أسيانية Ossianic » تقص فى شعر حماسى مثير مغامرات البطل الخرافى فن ماك — كمهيل Finn Mac Cumhail وأبنائه وحفدته الفيانا Fianna أو الفنيين Flnians . وتعزو الروايات المتداولة معظم هذه القصائد إلى أسيان Ossian بن فن Finn ، الذى عاش ، كما تقول الروايات ، ثلثمائة عام ومات أيام القديس پتريك ، بعد أن وهب القديس قسطا من عقله الوثنى . وتدور طائفة حماسية من القصص حول كوشولين Cuchulain الملك الأيرلندى ، الذى نشهده فى مائة منظر داعر من مغامرات الحرب والحب . وأجمل قصة فى هذه المجموعة تروى قصة ديردر Deirdre ابنة فليم Felim كبير شعراء الملك كونور Conor

ومضمونها أن قسا درويدياً يتنبأ لها ساعة مولدها بأنها ستسبب كثيراً من النكبات لبلادها ألصتر ؛ ويرفع الشعب عقيرته قائلا : « فلتذبح » ، ولكن الملك كونور يحميها من غضب الشعب ، ويربيها ، ويعتزم الزواج بها . وتزداد الفتاة جمالا على مر الأيام ، ثم تبصر ذات صباح الفتى ناأويز Naoise الوسيم يلعب الكرة مع غيره من الشبان ، وتلتقط الفتاة كرة ألقيت خطأ وتعيدها إليه ، و « ضغط على يدى وهو مبتهج » . وتؤثر هذه الحادثة فى عواطفها الناضجة فترجو خادمتها الخاصة قائلة : « أى مربيتى الرقيقة ، إذا كنت تحبين لى الحياة ، فاحملى منى رسالة إليه ، وقولى له أن يأتى ليتحدث إلىَّ سرًّا فى هذه الليلة » . ويقبل ناأويز ويغترف من حبها حتى يسكر ، ثم يأتى إليها هو وأخواه إينل Ainnle وأردان Ardan فى الليلة الثانية وينقلانها برضاها بطريق البحر إلى اسكتلندة . ويقع أحد ملوك اسكتلندة أسير هواها ، فيخفيها الإخوة الثلاثة فى شعاب الجبال ، ثم يبعث الملك كونور بعد حين رسالة يقول فيها إنه يعفو عنهم جميعاً إذا عادوا إلى إيرين Erin . ويوافق ناأويز على طلب الملك مندفعاً إلى ذلك بحنينه إلى وطنه ومسارح صباه ، وإن كانت ديردر تحذره عاقبة هذه العودة وتنذره بأن الملك سيغدر به . وما كادوا يصلون إلى أيرلندة حتى هاجمهم جنود كونور ، ويقاتل الإخوة قتال الأبطال ، ولكنهم يخرون جميعاً صرعى ، ويطير لُب ديردر من شدة الحزن ، فتلقى بنفسها على الأرض وتمتص دماء حبيبها ، وتنشد هذه الأغنية الحزينة :

بينا كان أعيان البا Alba (اسكتلندة) ذات يوم يقصفون
ويمرحون
إذ طبع ناأويز فى السر قُبلة
على وجنة ابنة لورد دنترون Duntrone ،
ثم بعث إليها بظبية وثابة ،

ظبية من ظباء الغاب وتحت قدمها خشف ،
ثم أقبل عليها زائراً
وهو عائد من جيش إنفرنس Inverness ،
فلما سمعت هذا ، اكتوى قلبي بنار الغيرة ،
ودفعت زورقى الصغير فوق الموج
ولم أبال هل قدّر لى أن أحيا أو أموت .
ونزلا إلى الماء فى إثرى
إينل وأردان ، اللذان لم ينطقا قط بغير الحق ،
وجاءا بى مرة أخرى إلى البر ،
وهما فتيان يغلبان مائة من الأبطال ،
وقطع لى ناأويز عهداً صادقاً
وأقسم بسلاحه ثلاث أيمان مغلظة
ألا يمسّ وجهى مرة أخرى
حتى يذهب من عندى إلى جيش الموتى
يا ويلها ، لو أنها سمعت فى هذه الليلة
أن ناأويز مسجى فى التراب
إذن لزرفت الدمع مدرارا
ولبكيت معها سبع مرات .

وتختتم أقدم صيغة من صيغ قصة « ديردر ذات الأشجان » بخاتمة قوية فى سذاجتها : « وكانت بالقرب منها صخرة كبيرة ، وضربت برأسها الحجر فتحطمت جمجمتها ولاقت حتفها »(٤١) .

وكان الشعر والموسيقى وثيق الصلة فى أيرلندة ، شأنهما فى غيرها من البلاد فى حياة العصور الوسطى . فكانت الفتيات يغنين وهن ينسجن أو يغزلن

أو يحلبن الأبقار ؛ وكان الرجال يغنون وهم يفلحون الأرض أو يسيرون إلى ميدان القتال ؛ والمبشرون يعزفون على القيثارة ليجمعوا حولهم مستمعيهم ، وكانت أحب الآلات الموسيقية هى القيثارة ، وكانت تتألف عادة من ستين وتراً ، يعزف عليها بالأنامل ، وكانت التمپان timpan كماناً ذات سبعة أوتار تضرب بالريشة أو القوس ؛ وكانت آلات موسيقى القرب تعلق فى الكتف وتنفخ بالفم ؛ ووصف چيرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis (١١٨٥) العازفين الأيرلنديين على القيثارة بأنهم أحسن من سمع من العازفين ، وهو إطراء عظيم القيمة لصدوره من ويلز المحبة للموسيقى .

وليس أجمل ما أثمره الفن الأيرلندى فى ذلك العصر كأس آرداغ Ardagh الذائعة الصيت (حوالى عام ١٠٠٠) التى اجتمعت فيها ٣٥٤ قطعة من الفضة ، والذهب ، والكهرمان ، والبلور ، والميناء المقسمة ، والزجاج ؛ بل إن أجمل منها « كتاب كلز Book of Kells وهو يحتوى الأناجيل الأربعة مخطوطة فى القرن التاسع على الرق بأيدى رهبان أيرانديين فى بلدة كلز من أعمال ميث Meath أو فى جزيرة أيونا Iona ، وهو الآن من أعظم ما تمتلكه كلية ترنتى Trinity College بدبلن . وجاء طراز تزيين الكتب البيزنطى والإسلامى إلى أيرلندة عن طريق الاتصال البطىء بين الرهبان بعضهم ببعض مخترقين الحدود ، وبلغ فيها درجة الكمال فى فترة قصيرة من الوقت . ولم يكن لصور الإنسان والحيوان فى تزيين الكتب بأيرلندة إلا شأن ضئيل ، مثله فى هذا كمثل هذا الفن عند المسلمين ، فقد كانوا يرون أن إنساناً أو حيواناً مهما بلغ لا يساوى نصف الحرف الأول . وكانت الروح السارية فى هذا الفن هى أن يؤخذ حرف من الحروف أو شكل زخرفى واحد ، ويمد فوق أرضيه زرقاء أو ذهبية اللون بشكل فكه مبهج حتى يكاد يغطى الصفحة بتمامها فى نسيج متشابك أشبه بالمتاهة . وليس فى المخطوطات المسيحية المزخرفة ما يفوق كتاب كلز هذا ، ويصفه

چرلد Girld من كتاب ويلز — وهو الذى لا ينفك يظهر غيرته من أيرلندة — بأنه من عمل الملائكة المتخفين فى أثواب البشر(٤٢) .

وإذ كان هذا العصر الذهبي فى أيرلندة نتيجة لسلامتها من الغزوات الألمانية التى أرجعت سائر أوربا مئات السنين إلى الوراء ، فقد قضت عليه غزوات الشماليين التى قضت فى فرنسا وانجلترا خلال القرنين التاسع والعاشر على كل ما أحرزه هذان البلدان بفضل ما بذله شارلمان وألفرد من جهود جبارة . ولعله قد ترامى إلى أهل النرويج والدنمرقة — وكانوا لا يزالون وثنيين — أن الأديرة الأيرلندية غنية بالذهب ، والفضة ، والحلى ، وأن انقسام البلاد السياسى يجعلها عاجزة عن مقاومة أعدائها متحدة . وحدثت غزوة تجريبية فى عام ٧٩٥ ولكنها لم تسبب للبلاد خسارة تذكر ، غير أنها أيدت ما كان يشاع عن عدم مقدرة هذه الفريسة على صد الغزاة ؛ ثم أعقبتها غزوات أخرى أكبر منها فى عام ٨٢٣ نهب فيها الغزاة كورك Cork وكلوين Cloyne ، وخربوا ديرى بنجور Bangor وموڤيل Moville وذبحوا رجال الدين . ولم تكد تخلو سنة واحدة بعد ذلك العام الأخير من غزوة أو غزوات ؛ استطاعت جيوش صغيرة باسلة أن تصد فيها الغزاة فى بعض الأحيان ، ولكنهم كانوا يعيدون الكرة وينهبون الأديرة أينما حلوا . واستقرت جماعات من الغزاة الشماليين قرب شاطئ البحر ، وأنشأوا مدائن دبلن ، ولمرك Limerick ، ووترفورد Waterford وفرضوا الجزية على نصف الجزيرة الشمالى . واتخذ مليكهم ثورجست Thorgest أرماغ Armagh مدينة القديس پتريك عاصمة لملكه الوثنى ، وتوّج زوجه الوثنيـــة على مذبح كنيسة القديس كيران St. Kieran فى كلونماكنيوس(٤٣) . وحارب ملوك أيرلندة متفرقين غزاة بلادهم ، ولكنهم كانوا فى الوقت عينه يحارب بعضهم بعضاً . فقد قبض ملاخى Melachi ميث على ثورجست وأماته غرقاً (٨٤٥) ، ولكن أولاف الأبيض Olof the White أحد الأمـ اء النرويجيين أسس فى عام ٨٥١

مملكة دبلن التى ظلت تابعة لأهل الشمال حتى القرن الثانى عشر . وقضت هذه الغزوات المتتابعة على عصر العلم والشعر ، وأحلت محله عصر الحروب الطاحنة ، وكان الجنود المسيحيون والوثنيون فى خلاله ينهبون الأديرة ويحرقونها ، ويتلفون المخطوطات القديمة ويشتتون ما تجمع من التحف الفنية خلال القرون الطوال ، « ولم يمارس شاعر ، أو فيلسوف ، أو موسيقى فنه المعتاد فى تلك البلاد » كما يقول مؤرخ أيرلندى قديم(٤٤) .

وظلت الحال كذلك حتى ظهر آخر الأمر رجل كان له من القوة ما أمكنه أن يجمع شتات هذه الممالك ويؤلف منها أمة موحدة . كان بريان بورمها أو بورو Brian Borumha or Boru (٩٤١ — ١٠٩٤) أخاً لماهون ملك منستر King Mahon of Munster ، وزعيم عمارة دجلاس Dalgas . وحارب الأخوان جيشاً دنمرقياً بالقرب من تپريرى Tipperary (٩٦٨) ومزقاه شر ممزق ، ولم يرحما فلوله المنهزمة ؛ ثم استوليا على لمرك ، وقتلا كل من عثرا عليه فيها من الشماليين . ولكن اثنين من صغار الملوك — ماوى ملك دزمند Molloy of Desmond ودوناڤان ملك هاى كاربرى Donavan of Hy Carbery — خشيا أن يستولى الأخوان الزاحفان على مملكتيهما فعقدا حلفاً مع المهاجرين الدنمرقيين ، واختطفا ماهون وقتلاه (٩٧٦) . وأوقع بريان ، وقد أصبح الآن ملكاً ، هزيمة ثانية بالدنمرقيين ، وقتل ملوى . وصمم على توحيد أيرلندة كلها ، ولم يتردد فى اتباع أية وسيلة توصله إلى هذه الغاية ، فتحالف مع الدنمرقيين مالكى دبلن ، وهزم بمعونتهم ملك ميث ، ونودى به ملكاً على أيرلندة كلها (١٠١٣) . ولما استمتع بالسلم بعد حروب دامت أربعين عاماً ، أخذ يعيد بناء الكنائس والأديرة ، ويصلح الجسور والطرق ، وينشئ المدارس والكليات ، ويقر النظام ويقضى على الجرائم . ولقد وصف الخلف ذوو الخيال الواسع ما ساد البلاد من أمن بفضل هذه « السلم الملكية » قصة كثيراً ما نراها فى غير هذه المناسبة ،

فقالوا إنه كان فى مقدور الفتاة المثقلة بالحلى والجواهر أن تطوف فى أنحاء البلاد بمفردها دون أن يتعرض لها أى أحد بأذى . وحشد أهل الشمال بأيرلندة فى هذه الأثناء جيشاً آخر ، زحفوا به على الملك الطاعن فى السن ، والتقى بهم الملك الإيرلندى عند كلنتارف Clontarf القريبة من دبلن فى يوم الجمعة الحزينة فى الثالث والعشرين من إبريل عام ١٠١٤ وهزمهم ، ولكن ابنه مروغ Murrogh قتل فى أثناء المعركة ثم ذبح بريان نفسه فى خيمته .

وحلّت السلم — وهى الترف الذى لا يستمتع به إلا المحظوظون — فى البلاد المنكوبة إلى حين ، وانتعشت الفنون والآداب من جديد فى القرن الحادى عشر ، وظهر فى خلاله كتاب لينستر the Book of Leinster وكتاب الترانيم وهما لا يكادان يقلان فى جمال زخرفهما عن كتاب كلز نفسه . وكان للمؤرخين والعلماء شأن كبير فى مدارس الأديرة ، غير أن الروح الأيرلندية الشكسة لم تكن قد روضت بعد ، فقد عادت الأمة فانقسمت إلى ممالك متعادية ، وأنهكت قواها فى الحروب الداخلية ، ورأت حفنة من المغامرين من أهل ويلز وإنجلترا فى عام ١١٧٢ أن من السهل عليها أن تفتح « جزيرة الدكاترة والقديسين » — وإن لم تجد من السهل عليها أن تحكمها .

الفصل الرابع

اسكتلندة ٣٢٥ — ١٠٦٦

هاجرت فى أواخر القرن الخامس قبيلة من الاسكتى Scotti الجبليين من شمالى أيرلندة إلى الجزء الجنوبى الغربى من اسكتلندة ، وأطلقوا اسمهم على جزء من شبه الجزيرة ذى المناظر الجميلة الخلابة الواقع فى شمال نهر التويد Tweed ثم على شبه الجزيرة كلها . وأخذت ثلاث قبائل أخرى تنازعها على امتلاك « كالدونية Caledonia » القديمة هذه : البكت Picts وهى قبيلة كلتية استقرت فوق خليج فورث The Firth of Forth ، والبريطانيون وهم الذين فروا أمام غزاة بريطانيا الأنجليسكسون واستقروا بين نهر درونت Derwent وخليج كليد Firth of Clyde ، والآنجلز Angles أو الإنجليز الضاربون بين نهر تين Tyne وخليج فورث . ومن هؤلاء كلهم تألفت الأمة الأسكتلندية : وهى أمة إنجليزية فى لغتها ، مسيحية فى دينها ، نارية فى مزاجها كالأيرلنديين ، عملية كالإنجليز ، ماكرة ، قوية الخيال ككل كلتى » .

وكان الاسكتلنديون كالأيرلنديين يستنكفون أن يتخلوا عن نظامهم القائم على صلة القربى ، ولا يرغبون فى أن يستبدلوا الدولة بالقبيلة . ولم يكن يضارع النزاع بين الطبقات فى شدته إلا ولاؤهم للقبيلة ، وفخرهم بولائهم لها ، وشدة مقاومتهم لأعدائهم الأجانب . وعجزت رومة عن فتح بلادهم ، بل إن سور هدريان الذى أقيم بين سلواى Solway والتين (١٢٠ م) ، وسور انطونينس بيوس Antoninus Pius ، الذى يبعد ستين ميلا نحو الشمال بين خليجى فورث وكليد (١٤٠) ، وحروب سبتميوس سفيرس Septimius Severus (٢٠٨) أوثيودوسيوس Theodosius (٣٦٨) ، بل إن هذه كلها لم تجد نفعاً فى القضاء

على الغزوات المتكررة التى كان يشنها البكت الجياع من حين إلى حين على البريطانيين . وفى عام ٦١٧ استولى السكسون بقيادة إدون ملك نورثمبريا على معقل البكت الجبلى الحصين وأطلقوا عليه اسم إد (و) نبرج Ed (w) inburgh (إدنبره) ، وفى عام ٨٤٤ ضم كنث مالك ألبين Kenneth Mac·Alpin البكت والاسكتلنديين تحت سلطانه ؛ وفى ٩٥٤ استردت القبائل إدنبره ، واتخذتها عاصمة لها ؛ وفى ١٠١٨ استولى ملكولم الثانى على لوثيان Lofhian (الإقليم الواقع شمال نهر التويد) ، وضمها إلى مملكة البكت والاسكتلنديين . وبدا أن الكلت قد ضمنوا لأنفسهم السيادة على البلاد ؛ ولكن غزو الدنمرقيين لإنجلترا دفع آلافاً من « الإنجليز » إلى جنوبى اسكتلندة ، وتدفق بذلك عنصر أنجليسكسونى قوى إلى دماء الأسكتلنديين .

وجمع دنكان الأول Duncan I (١٠٣٤ — ١٠٤٠) هذه الشعوب الأربعة كلها — البكت ، والاسكت Scotts ، والكلت البريطانيين ، والأنجليسكسون — وكون منها مملكة واحدة هى مملكة اسكتلندة . ولما هزم الإنجليز دنكان عند درهام Durham مهدت هذه الهزيمة السبيل لقائده مكبث Macbeth ، فطالب لنفسه بعرش البلاد لأن زوجته جروتش Gruoch كانت حفيدة كنث الثالث . واغتال مكبث دنكان (١٠٤٠) ، وحكم البلاد سبعة عشر عاماً قتله بعدها ملكولم الثالث ابن دنكان . واغتيل من الملوك السبعة عشر الذين حكموا اسكتلندة بين عامى ٨٤٤ و ١٠٥٧ اثنا عشر لأن ذلك العصر كان مليئاً بأعمال العنف والنزاع المرير طلباً للغذاء والماء ، والحرية والسلطان . ولم تجد اسكتلندة فى تلك السنين المليئة بالأحداث الجسام متسعاً من الوقت تمارس فيه ترف الحضارة ونعمها ؛ فقد اغتصب المغيرون الشماليون جزائر أوركنى Orkney ؛ وفارو Faroes ، وشتلندة Shetlnd ، وهبريده Hebrides ؛ وقضت إنجلترا حياتها كلها مهددة بغارات قراصنة الشمال (الفيكنج Vikings) الشداد الذين كانوا يبسطون سلطانهم وينشرون بنى جنسهم فى أنحاء العالم الغربى

الفصل الخامس

أهل الشمال The Northmen : ٨٠٠ — ١٠٦٦

١ — قصص الملوك The Kings' Saga

يلوح أن أهل الشمال كانوا من التيوتون الذين انتقل أسلافهم إلى بلاد السويد والنرويج بعد أن اخترقوا الدنمرقة وعبروا مضيق أسكجراك Skaggerak وكتجات Kattegat ، وحلوا فى البلدين محل الكلت الذين حلوا من قبل محل شعب شيبه باللاپلاندين والإسكيمو(٤٥) . وأطلق زعيم قديم يدعى دان مكلاتى Dan Mikillati اسمه على الدنمرقة — ومعناها منقع دان أوولايته ؛ وتركت قبيلة اسويونس Suiones ، إحدى القبائل القديمة التى وصفها تاستس Tacitus بأنها كانت تسيطر على شبه الجزيرة العظيمة ، تركت هذه القبيلة اسمها فى اسم بلاد السويد Sweden (اسفريج Sverige) ، وفى اسم كثير من الملوك الذين يسمون اسوين Sweyn ؛ وليس معنى لفظ النرويج (نورج Norge) إلا الطريق الشمالى . وأصبح لفظ اسكانى Scané وهو الاسم الذى أطلقه پلنى Pliny الأكبر على بلاد السويد اسكانديا Scandia فى اللغة اللاتينية ، ونشأ منه لفظ إسكنديناوه Scandinavia الذى يشمل الآن ثلاث أمم وثيقة الصلة فى دمائها ذات لغات يفهم المتحدثون بها بعضهم بعضاً . وزادت خصوبة النساء أو زاد خيال الرجال فى الأقطار الثلاثة على خصوبة التربة ، فعمد الشبان أوغير الراضين عن مصيرهم إلى زوارقهم ، وأخذوا يحومون حول السواحل يطلبون الطعام ، أو العبيد ، أو الأزواج ، أو الذهب ، ولم يكونوا لجوعهم يرعون قانوناً أوحدوداً للأقاليم ؛ فاجتاح أهل

النرويج اسكتلندة ، وأيرلندة ، وأيسلندة وجرينلندة ؛ وأهل السويد الروسيا ؛ والدنمرقيون إنجلترا وفرنسا .

ولا يسعنا لقصر أجل الحياة البشرية أن نذكر فى هذه العجالة آلهة تلك البلاد وملوكها بالتفصيل ؛ وحسبنا أن نقول هنا إن جورم Gorm (٨٦٠ — ٩٣٥) وهب دنمرقة وحدتها ؛ وإن ابنه هارلد بلوتوث (صاحب السن الزرقاء) Harald Bluetooth (٩٤٥ —٩٨٥) جعل المسيحية دينها ؛ وإن سوين فورك بيرد ذا اللحية المتشعبة Sweyn Forkbeard (٩٨٥ — ١٠١٤) فتح إنجلترا ورفع دنمرقة مدى جيل من الزمان إلى منزلة من دول أوربا الكبرى . وجعل الملك أولاف اسكتكوننج Olaf Skottconung (٩٩٤ — ١٠٢٢) المسيحية دين السويد ، ومدينة أبسالا Uppsala عاصمة ملكه . وكانت بلاد النرويج فى عام ٨٠٠ مؤلفة من إحدى وثلاثين إمارة ، تفصلها بعضها عن بعض الجبال ، والأنهار ، والخلجان الطويلة الضيقة العميقة (الفيوردات) ، ويحكم كلا منها زعيم من المحاربين ، وظلت كذلك حتى عام ٨٥٠ حين زحف هلفدان الأسود Halfdan the Black أحد هؤلاء الزعماء من عاصمته ترندهيم Trondheim وأخضع لحكمه معظم الزعماء الآخرين ، وصار أول ملوك النرويج . وخرج على ولده هارلد هارفاجر Harald Haarfager (٨٦٠ — ٩٣٣) الزعماء المتمردون ، ورفضت جيدا Gyda التى خطبها لنفسه الزواج به إلا بعد أن يفتتح جميع بلاد النرويج ، وأقسم ألا يقص شعره أو يمشطه حتى يتم هذا الفتح ، وأتمه بالفعل فى عشر سنين ، وتزوج بعدها بجيدا وبتسع نساء غيرها . ثم قص شعره وسمى باسمه المميز له — « ضاحب الشعر الأشقر »[٤٦] . وحكم هاكون الصالح Haakon the Good (٩٣٥ — ٩٦١) أحد أبنائه الكثيرين بلاد النرويج حكماً صالحاً دام سبعاً وعشرين سنة ، قال فيها أحد قراصنة البلاد إن «السلم طالت حتى أصبحت أخشى أن توافينى منيّتى فى شيخوختى وأنا على فراشى فى عقر دارى »[٤٧] .

وحكم هاكون آخر — الإيرل الأكبر The Great Earl النرويج حكماً حازماً دام ثلاثين عاما (٩٦٥ — ٩٩٥) ؛ ولكنه أغضب الزراع الأحرار فى شيخوخته باتخاذه بناتهم محظيات له ثم إعادتهن بعد أسبوع أو أسبوعين ، فاستقدم أولئك الزراع الأحرار أولاف ترجڤسون Olfat Tryggvesson ونادوا به ملكاً عليهم .

وكان أولاف بن ترجف حفيد أحد أبناء هارلد ذا الشعر الأشقر ، وكان « رجلاً شديد المرح والمجون » — كما يقول سنورى الأيسلندى Snori of Iceland — طروباً ، أنيساً ، محباً للاجتماع بالناس ، جواداً كريماً ، متأنقاً فى لباسه . . . بديناً ، قويا ، أجمل الناس خلقاً وأعظم براعة فى الرياضة البدنية من كل من سمعنا به من أهل الشمال »(٤٨). وكان فى مقدوره أن يتنقل على المجاذيف خارج سفينته والرجال يجذفون ، ويلعب بثلاثة خناجر حادة الأطراف ، ويقذف بحربتين فى وقت واحد ، و « يستطيع أن يحسن القطع بكلتا يديه بدرجة واحدة »(٤٩) . وكان كثير المنازعات والمغامرات ؛ وقد اعتنق المسيحيـة وهو فى الجزائر البريطانية ، وأصبح أعظم دعاتها قسوة ؛ فلما جلس على عرش النرويج (٩٩٥) هدم المعابد الوثنية ، وشاد الكنائس المسيحية ، وظل يعيش مع عدد من الزوجات . وقاوم الزراع الأحرار الدين الجديد أشد مقاومة ، وأصروا على أن يقرّب أولاف القربان إلى ثور Thor كما تقضى بذلك الشعائر القديمة ، وأجابهم أولاف إلى ما طلبوا ولكنه عرض أن يقرب إلى ثور خير قربان يرتضيه وهو الزراع الأحرار أنفسهم ؛ فلم يكن منهم إزاء ذلك إلا أن اعتنقوا الدين المسيحى . ولما استمسك واحد منهم يدعى راند Rand بدينه الوثنى ، أمر أولاف بشد وثاقه ودفع ثعباناً فى حلقه بأن كوى ذيل الثعبان بالنار ، فاندفع الثعبان إلى بطن راند وجنبه ، وقضى على حياته(٥٠) . وخطب أولاف لنفسه سجريد Sigrid ملكة السويد ، فوافقت على الخطبة ، ولكنها أبت أن تتخلى عن دينها الوثنى ، فما

كان من أولاف إلا أن ضربها بقفازه فى وجهها وقال لها : « وما الذى يرغمنى على أن أتخذك زوجة وأنت عجوز شمطاء ، سليطة كافرة ؟ » . فردت عليه سجفريد بقولها : « سيكون فعلك هذا سبباً فى موتك يوماً من الأيام » . وبعد سنتين من هذه الحادثة شن ملكا السويد والدنمرقة ، وإيرل إرك النرويجي Eric Earl of Norway الحرب على أولاف ، وهزماه فى معركة حربية حامية الوطيس بالقرب من روجن Rügen ، وألقى أولاف وهو بكامل عدته وسلاحه إلى اليم ، ولم يظهر له أى أثر بعد (١٠٠٠) ، وقسمت بلاد النرويج على أثر ذلك بين الحليفين المنتصرين .

وأعاد أولاف آخر يدعى القديس بلاد النرويج إلى وحدتها (١٠١٦) ، كما أعاد النظام ، وعدل فى قضائه ، وأتم تحويل البلاد إلى الدين المسيحى . ويصفه اسنورى Sonri بقوله إنه « كان رجلا صالحاً دمث الأخلاق إلى حد بعيد ، لا يتكلم إلا قليلا ، سخياً ، ولكنه شره فى جمع المال » مدمن بعض الإدمان على الاستمتاع بالسرارى[٥١] . ومن أعماله أنه قطع لسان أحد الزراع الأحرار لأنه فضل الوثنية على المسيحية ، وسمل عينى زارع آخر[٥٢] . وائتمر الزراع به مع كنوت ملك الدنمرقة وإنجلترا ، فسيرا عليه خمسين سفينة وطردا أولاف من النرويج (١٠٢٨) ؛ ولكن أولاف عاد إليها بجيش ، وحارب لاسترجاع عرشه عند استكل ساند Sticklesand ، فهزم ومات متأثراً بجراحه (١٠٣٠) . وشاد من جاء بعده من النرويجيين كنيسة فى موضع المعركة تخليداً لذكره ، واتخذوه القديس الشفيع للنرويج . واسترد ابنه ماجنس الصالح Magnus the Good (١٠٣٥ — ١٠٤٧) مملكته ، ووهبها قوانين عادلة وحكماً صالحاً . وحكم حفيده هارلد الصارم Harald the Stern (١٠٤٧ — ١٠٦٦) حكماً عادلا خالياً من الرحمة دام حتى استولى وليم النورمندى على إنجلترا .

وحدث فى عام ٨٦٠ أن أعاد جماعة من الشماليين قدموا من النرويج

أو الدنمرقة كشف جزيرة أيسلندة ، ولم يسؤهم كثيراً أن يجدوها شديدة الشبه ببلادهم فى ضبابها وفيوردانها . وهاجرت جماعات من النرويجيين إلى الجزيرة فى عام ٨٧٤ فراراً مما كانوا يعانونه من استبداد هارلد هارفاجر ، ولم يحل عام ٩٣٤ حتى بلغ سكانها من الكثرة درجة لم تزد عليها فى جميع تاريخها حتى الحرب العالمية الثانية . وكان لكل ولاية من ولاياتها الأربع ثنجها thing أو جمعيتها ، ثم أنشئ فى عام ٩٣٠ ثنجها العام أو برلمانها الموحد . وكان من أقدم الهيئات فى تاريخ الحكم النيابى ، وبفضله كانت أيسلندة فى ذلك الوقت هى الجمهورية الوحيدة الكاملة الحرية فى العالم كله . ولكن ذلك العنفوان وتلك النزعة الاستقلالية اللذين كانا سبباً فى الهجرة إلى الجزيرة ، وقيام هذا المجلس النيابى فيها ، أضعف من سلطان الحكومة العامة والقوانين المشتركة ، فكان من أثر ذلك أن أصبح الأفراد الأقوياء الذين ثبتت أقدامهم فى ضياعهم الواسعة أصحاب الأمر والنهى فى أراضيهم ، وما لبثوا أن جددوا فى أيسلندة المنازعات التى جعلت بلاد النرويج شوكة فى جانب ملوكها . وجعل الثنج العام (Allthing) المسيحية الدين الرسمى للبلاد فى عام ١٠٠٠ ؛ ولكن الملك أولاف القديس ساءه أشد الاستياء ما سمعه من أن أهل أيسلندة لا يزالون يأكلون لحم الخيل ويئدون أطفالهم . ولعل طول ليالى الشتاء وشدة بردها كانا السبب فى نشأة أدب قوامه أساطير وأقاصيص لعلها تفوق من حيث الكم والكيف مثيلاتها من القصص والأساطير التى تروى فى أرض الشماليين .

وبعد ستة عشر عاماً من إعادة كشف أيسلندة شاهد أحد ربابنة السفن النرويجيين ويدعى جنبجورن ألفسون Gunnbjorn Ulfsson سواحل جرينلندة وأنشأ فيها ثورووولد Thorwald وولده إرك الأحمر مستعمرة نرويجية عام ٩٨٥ . ثم كشف بجرن هرجلفسن Bjerne Herjulfsson لبرادور Labrador فى عام ٩٨٦ ، وفى عام ١٠٠٠ نزل ليف Leif بن إرك الأحمر إلى القارة الأمريكية .

ولسنا نعرف أكان الموضع الذى نزل فيه هو لبرادور ، أم نيوفوندلند Newfoundland ، أم رأس كد Cod ؛ وقضى ليف إركسن Lief Ericssson الشتاء فى « ڤنلند Vinland » (أرض الخمر) ثم عاد بعدئذ إلى جرينلندة ؛ وفى عام ١٠٠٢ قضى أخوه ثورووولد هو وثلاثون رجلا عاماً كاملا فى ڤنلندة . وتروى حاشية لا يتأخر تاريخها عن عام ١٣٩٥ فى « قصة أولاف ترجڤسون » التى كتبها اسنرى استرلوسون Snorri Sturluson (١١٧٩ — ١٢٤١) قصة خمس حملات مختلفة شنها أهل الشمال على قارة أمريكا بين عامى ٩٨٥ و ١٠١١ . وقد جاء كرستقر كولمبس Christopher Columbous ، كما يقول هو نفسه ، إلى أيسلندة ، ودرس ما يتردد على لسان أهلها من أقوال عن الدنيا الجديدة(٥٣).

٣ — الحضارة الڤيكنجية (حضارة القراصنة الشماليين)(*)

كان النظام الاجتماعى يقوم بين أهل الشمال ، كما يقوم بين سائر الشعوب القديمة ، على التأديب العائلى ، والتعاون الاقتصادى ، والإيمان الدينى . وقد جاء فى فقرة من بيولف أن « لاشىء يقضى على وشائج القربى عند صاحب البصيرة »(٥٤). وكان غير المرغوب فيهم من الأطفال يعرضون للموت ، ولكن الطفل إذا ما قبله أبواه تلقى على يديهم مزيجاً من التأديب والحب ؛ ولم يكن عندهم أسماء أسر ، بل كان كل ولد يكتفى بأن يضيف إلى اسمه اسم أبيه : أولاف هرالدسون ، ماجنس أولافسون ، هاكون ماجنسون . وكان أهل اسكندیناوة

(*) لفظ ڤيكنج مشتق من لفظ ڤيك فى لغة أهل الشمال الأقدمين ومعناه شرم أو فيورد . ويظهر لفظ ڤيك بهذا المعنى نفسه فى نارڤيك Narvik ، وشلزويج Schleswig ، وريكجافيك Reykjavik ، وبرويك Barwick ، وويكلو Wicklow وغيرها . ومعنى لفظ ڤيكنجر Vikingr أحد الذين أغاروا على البلاد الملاصقة للفيوردات ، وستعنى « الحضارة الڤيكنجية » فى هذا الفصل ثقافة الشعوب الأسكندیناوية فى « عصر الڤيكنج » بين عامى ٧٠٠ و ١١٠٠ من التاريخ الميلادى .

قبل دخول المسيحية إلى البلاد بزمن طويل ، إذا أرادوا أن يسموا طفلا صبوا عليه ماء رمزاً لدخوله فى حظيرة الأسرة .

وكان التعليم عندهم ذا صبغة عملية : فكانت البنات يتعلمن الفنون فى المنزل ، وكان منها عصر الجعة ؛ أما الأولاد فكانوا يتعلمون السباحة ، والمشى على مزالق الجليد ، وأشغال الخشب والمعادن ، والمصارعة ، والتجذيف ، والانزلاق ، ولعبة الكرة والصولجان hockey (والاسم مشتق من الكلمة الدنمرقية hock ومعناها الخطاف) ، والقنص ، والرمى بالأقواس والسهام ، والضرب بالسيوف ، والطعن بالحراب ، وكان القفز من ضروب الرياضة المحببة ، وكان فى وسع بعض النرويجيين أن يقفزوا بكامل سلاحهم ودروعهم إلى أعلى من طول قامتهم ، وأن يسبحوا فى الماء عدة أميال ؛ ومنهم من كان يسبق أسرع جواد(٥٥) . وكان كثيرون من الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة ، وبعضهم يتعلمون الطب أو القوانين . وكان الذكور والنساء على السواء مولعين بالغناء ، ومن هؤلاء وأولئك من كانوا يعزفون على الآلات الموسيقية وهى عادة القيثارة . ونقرأ فى إلدر أدا **Elder Adda** أن الملك جنار Gunnar كان يستطيع العزف على القيثارة بأصابع قدميه ، ويستطيع بها أن يسحر الأفاعى .

وظل أغنياؤهم متعددى الزوجات حتى القرن الثالث عشر ، وكان الآباء هم الذين يرتبون شئون الزواج ، وكثيراً ما كان ذلك عن طريق الشراء ؛ غير أن أحرار النساء كن يستطعن إلغاء هذا الترتيب(٥٦) ، فإذا تزوجت الفتاة بغير إرادة والديها عد زوجها خارجاً على القانون ، وأباح القانون لأهلها أن يقتلوها . وكان فى وسع الرجل أن يطلق زوجته متى شاء ، فإذا لم يستطع أن يبرر الطلاق بأسباب قوية كان فى مقدور أهلها أيضاً أن يقتلوه . وكان من حق الزوج والزوجة أن يطلق أحدهما الآخر إذا ما لبس الرجل ثياب النساء أو لبست المرأة ثياب الرجل — كأن تلبس المرأة سراويل قصيرة ، أو يلبس الرجل قميصاً مفتوحاً عند صدره . وكان

من حق الرجل أن يقتل دون أن يلقى عقاباً — أى دون أن يثير خصاماً دموياً — أى رجل يضبطه فى علاقة غير شريفة بزوجته(٥٧) . وكان النساء يكدحن ولكنهن بقى لديهن من الأناقة ما يكفى لأن يقتل الرجال بعضهم بعضاً من أجلهن ، وكان الرجال ذوو السلطان فى الحياة العامة أذلاء كما هى العادة فى بيوتهن : ويمكن القول بوجه عام إن مكانة المرأة فى اسكنديناوة الوثنية كانت أعلى منها فى اسكنديناوة المسيحية(٥٨) . فلم تكن فيها أم الخطيئة بل كانت أم الرجال الأقوياء البواسل ، وكان لها حق الثلث — وحق النصف بعد عشرين عاماً من زواجها — فى كل ما يكسبه زوجها من مال ؛ وكان يستشيرها فى أعماله المالية ، وكانت تختلط فى بيتها مع الرجال بكامل حريتها .

وكان العمل مما يشرف صاحبه ، وكان لجميع الطبقات منه نصيب : وكان صيد السمك من الصناعات الكبرى ، وصيد الحيوان من ضرورات الحياة لا من أسباب متعتها . ألا فليتصور القارئ ما استلزمه من كدح وقوة إرادة تقطيع غابات السويد وتذليل تربة منحدرات تلال النرويج المتجمدة وفلحها ؛ وليست حقول القمح فى منسوتا Minnesota إلا وليدة التربة الأمريكية ذللها صبر النرويجيين . وكانت الضياع الكبيرة قليلة العدد ، حتى لقد فاقت اسكنديناوة غيرها من البلاد فى كثرة عـــدد ملاكها من الزراع الأحرار . وكان هناك نوع من التأمين غير المكتوب يقلل من وقع الكوارث على أولئك الزراع : فإذا حرق بيت زارع عاونه جيرانه على بنائه من جديد ، وإذا نفقت مواشيه بسبب المرض من « فعل الله » منحوه ما يعادل نصف ما خسره . وكان كل شمالى تقريباً ذا حرفة ، وكان بارعاً بنوع خاص فى النجارة ، غير أن الرجل الشمالى كان متأخراً فى استخدام الحديد الذى لم يدخل بلادهم إلا فى القرن الثامن ، فلما دخلها صنعوا منه أنواعاً مختلفة من العدد ، والأسلحة ، والزخارف ، صنعوها قوية جميلة من البرنز ، والفضة ، والذهب(٥٩) ؛ وكثيراً ما كانت الدروع والسيوف المزخرفة

الجميلة النقش ، والأقراط ، والدبابيس ، والسروج جميلة يتباهون بها . وكان بناءو السفن الشماليون يبنون الزوارق والسفن الحربية ؛ ولم تكن هذه أكبر من سفن الأقدمين ، ولكن يبدو أنها كانت أصلب منها ، فكانت مستوية القاع لتزيدها ثباتاً ، محددة فى جؤجؤها لتدمر ، فن العدو ؛ وكان غاطسها يتراوح بين أربع أقدام وست ، وطولها بين ستين قدماً ومائة وثمانين ، يدفعها الشراع حيناً والمجاذيف فى معظم الأحيان — ويبلغ عددها فى الجانب الواحد من جانبيها عشرة مجاذيف أو ستة عشر ، أو ستين مجذافاً . وهذه السفن الساذجة هى التى حملت الرواد ، والتجار ، والقراصنة ، والمحاربين من أهل الشمال فى أنهار الروسيا منحدرة فيها إلى بحر الخزر والبحر الأسود ، وعبرت بهم المحيط الأطلنطى إلى أيسلندة ولبرادور .

وكان الفيكنج يقسمون أنفسهم طبقات : الجارل Jarl والإيرل ، وطبقة البندى bondi أو الملاك الفلاحين ، وطبقة العبيد ؛ وكانوا يلقنون أبناءهم فى صراحة (كما يفعل الخراس فى جمهورية أفلاطون) أن انتماء كل إنسان إلى طبقته أمر قررته الآلهة لا يجرؤ على تبدياه إلا غير المؤمنين(٦٠) . وكان الملوك يختارون ممن يجرى فى عروقهم الدم الملكى ، وولاة الأقاليم من طبقة الجارل . وهذا القبول الصريح للملكية والأرستقراطية ، وهما من المستلزمات الطبيعية للحرب والزراعة ، كان يسير معه جنباً إلى جنب نظام دمقراطى عجيب يجعل من ملاك الأراضى مشترعين وقضاة فى جمعيات محلية يعقدها أصحاب البيوت ، وجمعيات قروية تعقد فى الولايات ، وجمعية قومية عامة أو برلمان . لقد كانت هذه الحكومة حكومة قوانين لا حكومة رجال فحسب ، العنف فيها من الأمور الشاذة النادرة ، والأحكام القضائية هى القاعدة العامة . نعم إن قصص تلك البلاد مليئة بحوادث الانتقام وما ينشأ عنه من خصام وإراقة للدماء ، ولكن الافتداء حتى فى عصر الفيكنج ، عصر الدم والحديد ، قد أخذ يحل محل الانتقام الفردى ، ولم يكن منهم من قانونه الوحيد هو النصر أو الهزيمة إلا قراصنة البحار . وكان

العقاب الصارم يستخدم لحمل أولئك الرجال ، الذين غلظت طباعهم لطول كفاحهم مع الظروف الطبيعية ، على الخضوع للسلم والنظام . فكان الزانى يعاقب بالإعدام شنقاً أو تطوءه الخيل حتى يموت ، وكان جزاء الحريق العمد هو إحراق مرتكبه وهو مصلوب ، ومن يقتل أحد أبويه يعلق من قدميه إلى جانب ذئب حى معلق بنفس الطريقة ، والثائر على الحكومة يشد إلى جوادين يسيران فى اتجاهين متضادين حتى يمزق جسمه ، أو يربط خلف ثور برى يجره حتى يقضى نحبه(٦١) . ولعل فى هذا العقاب الوحشى دليلا على أن القانون لم يحل بعد محل الانتقام الشخصى ، وكل ما فى الأمر أنه جعله من حق المجتمع نفسه . وحتى القرصنة نفسها قد تخلت عن مكانها للقانون ، فاستقر اللصوص وأصبحوا تجاراً واستبدلوا الدهاء بالقوة ؛ وجدير بالذكر أن كثيراً من مواد قانون أوربا البحرى مأخوذة من قانون أهل الشمال منقولة عن حلف المدن الهانسية Hanseatic League(٦٢). وقد كتبت قوانين النرويج فى عهد مجنس الصالح (١٠٣٥ — ١٠٤٧) على رق سمى بسبب لونه « الإوزة الشهباء » . ولا يزال هذا الرق باقياً إلى الآن ، ويحتوى على أوامر مستنيرة للإشراف على الموازين والمقاييس ، ومراقبة رجال الشرطة للأسواق والثغور ، ومعونة الدولة للمرضى والمعوزين(٦٣) .

وقد عاون الدين القانون والأسرة على جعل أولئك الحيوانات مواطنين صالحين . ولم تكن الآلهة التيوتونية مجرد أساطير لأهل الشمال ، بل كانت أرباباً حقيقيين تهاب وتحب ، وتتصل اتصالا وثيقا بالآدميين بآلاف المعجزات وحوادث الغرام . ذلك أن النفوس البدائية فى دهشتها ورعبها قد خولت جميع قوى الطبيعة ومجسماتها الكبرى إلى أرباب شخصية ، يتطلب أقواهم أن يسترضى على الدوام استرضاء لا يقل أحياناً عن التضحية بالآدميين أنفسهم . وكان مجمع الآلهة مزدحماً بهم : كان فيه اثنا عشر إلها ذكراً ، واثنتا عشرة إلهة أنثى ؛ وكثير من مختلف المردة (الچوتون Jotun) وأرباب الأقدار (نورن Norn) ،

ورسل الآلهة والساقون (الڤلكيرى Valkyries) ، وبينهم عدد من العرّافات ، وصغار العفاريت ، والساحرات . فأما الآلهة فلم يكونوا أكثر من آدميين مكبرين ؛ يولدون مثلهم ، ويجوعون ، وينامون ، ويمرضون ، وينفعلون ، ويحزنون ويموتون ؛ ولا يفوقون الآدميين إلا فى أحجامهم ، وطول أعمارهم ، وعظيم قواهم . ومن هؤلاء أودين Odin (وودن Woden الألمانى) أبو الآلهة كلهم ، الذى كان يسكن بجوار بحر آزوف (آزاق) Azov فى أيام قيصر ؛ وهناك أنشأ أسجارد Asgard أو حديقة الأرباب لأسرته ومستشاريه واشتدت لديه الرغبة فى تملك الأرضين ففتح بلاد أوربا الشمالية . على أنه لم يسلم من التحدى ولم يكن قادراً على كل شىء ؛ فقد عنفه لوكى Loki أشد التعنيف(٦٤) ، وتجاهله ثور Thor ولم يعبأ به . فأخذ يذرع الأرض فى طلب الحكمة ، واشترى بأحد عينيه جرعة من ينبوع الحكمة . ثم اخترع الحروف الهجائية ، وعلم خلقه الكتابة ، والشعر ، والفنون ، ووضع لهم القوانين . وقبل أن تنتهى حياته على ظهر الأرض عقد جمعية من السويديين والقوط ، وجرح نفسه فى تسعة أماكن من جسمه ، فمات ورجع إلى أسجارد ليعيش فيها إلها .

وكان ثور فى أيسلندة أعظم من أودين ، فقد كان فيها إله الرعد ، والحرب ، والعمل ، والقانون ، وكانت السحب السوداء حاجبيه السوداوين ، وكان الرعد صوته ، والبرق مطرقته يلقى بها من السماء . وكان للشعراء الشماليين معه كثير من المزاح ، كما يمزح اليونان مع هيفستوس Hephaestus وهرقل ، ولعلهم قد أخذوا منذ ذلك الوقت البعيد يتشككون فى آلهتهم تشكك هومر فى آلهته ، وكانوا يتمثلونه فى جميع أنواع المآزق والأعمال الشاقة المضنية ؛ ومع هذا فقد بلغ من حب الأيسلنديين له أن واحداً من كل خمسة منهم تقريبا كان يغتصب اسمه — ثورلف Thorolf ، ثورولد Thorwald ، ثورشتين Thorstein . . .

وكان بلدور Baldur بن أودين عظيما فى القصص وأقل مقاماً من أودين وثور

فيما يلقاه من العبادة . كان « ذا بهاء فى صورته وملامحه . . . وكان أرق الآلهة ، وأكثرهم حكمة ، وأفصحهم لساناً[٦٥] ؛ وكادت هذه الصفات تغرى المبشرين الأولين بأن يقولوا إنه هو المسيح عينه ؛ ويقال إنه رأى حلماً مزعجا ينبئه باقتراب منيته ، ولما قص هذا الحلم على الآلهة طلبت الإلهة فرجا Frigga إلى جميع أنواع الجماد ، والحيوان ، والنبات ، أن تقسم أغلظ الأيمان ألا يمسّ أحدها بسوء ؛ فكان جسده الفخم المجيد بعد هذا القسم يطرد جميع الأجسام المؤذية ، وكان الآلهة يسلون أنفسهم بأن يقذفوه بالحجارة والسهام ، والفؤوس والسيوف ؛ فكانت هذه الأسلحة كلها ترتد عنه ، ولا تترك فى جسده أثراً . غير أن فرجا قد فاتها أن تأخذ عهداً على « شجيرة صغيرة تدعى المقاس »(*) ألا تمسه بسوء لأنها ظنتها أضعف من أن تؤذى إنساناً ما . فما كان من لُكيى الوقح المحب للوقيعة بين الآلهة إلا أن قطع منها عسلوجاً ، وأقنع إلهاً كفيفاً أن يلقيه على بلدور ، ونفذ العسلوج فى جسده فقضى عليه ، ثم ماتت زوجته نپ Nep من فرط حزنها عليه ، وحرقت جثتها مع بلدور وجواده المطهم على كومة واحدة[٦٦] .

وكان الفلكيرى — الذين يختارون القتلى — هم الذين يحق لهم أن يحددوا أجل كل نفس . وكان الذين يموتون ميتة دنيئة يلقون فى ممالك هل Hel ، إلهة الموتى ، أما الذين يموتون فى ميدان القتال فيأخذهم الفلكيرى إلى فلهلا Valhalla — « بهو الصفوة » ، حيث يصبحون أبناء أدوين فيعودون مرة أخرى ذوى قوة وجمال ، يقضون نهارهم فى حروب البسالة وليلهم فى شرب الجعة . ثم أتى حين من الدهر (كما تقول الأساطير الشمالية المتأخرة) أعلنت فيه الجوتون — شياطين الاضطراب والدمار الزهيبة — الحرب على الآلهة ، وقاتلتها قتالا هلكت فيه هذه وتلك عن آخرها . وفى هذا العصر ، عصر غسق الآلهة ، تهدم الكون كله : ولم يقتصر هذا الدمار على الشمس ، والكواكب ، والنجوم ،

(*) وتسمى أيضاً الدبق والدابوق Mistletoe . (المترجم)

بل شمل فى النهاية القلهلا نفسها وجميع من فيها من المحاربين والأرباب ؛ ولم يبق إلا الأمل وحده — الأمل فى أن مر الوقت البطىء سوف تنشأ منه أرض جديدة ، وسماء جديدة ، وعدالة خير من العدالة السابقة ، وآلهة أعظم من أودين وثور . ولعل هذه القصة العظيمة ترمز إلى انتصار المسيحية ، وإلى الضربات الشديدة التى كالها المليكان أولاف Olafs من أجل المسيح ؛ أو لعل شعراء الفيكنج قد أخذوا يشكون فى آلهتهم ويوارونهم التراب .

تلك أساطير عجيبة لا تفوقها فى جمالها وفتنتها إلا أساطير اليونان . وكانت أقدم صورة وصلت إلينا منها هى صورتها فى تلك القصائد العجيبة التى سميت خطأ باسم الإدا Edda(*) . وخلاصة قصتها أن راهباً كشف فى عام ١٦٤٣ فى مكتبة كپنهاجن الملكية مخطوطاً يحتوى عدداً من القصائد الأيسلندية القديمة ؛ ووقع هذا الراهب فى خطإ مزدوج فسماها إدا سيمند الحكيم The Edda of Saemund the Wise (حوالى عام ١٠٥٦ — ١١٣٣) وهو عالم أيسلندى من رجال الدين . والباحثون الآن يجمعون على أن هذه القصائد قد كتبها فى النرويج وأيسلندة ، وجرينلندة كتاب غير معروفين فى أوقات غير معروفة بين القرنين الثامن والثانى عشر ، وأن سيمند ربما يكون قد جمعها ولكنه لم يؤلفها ، وأن الإدا لم يكن اسمها . ولكن الزمن يقر الأخطاء كما يقر السرقات ، ويوفق بين هذه الأخطاء بأن يسمى القصائد الإداء الشعرية أو الإدا الكبرى . وهى فى معظمها أغان قصصية عن الأبطال أو الآلهة الاسكندیناويين أو الألمان ؛ وفيها نلتقى لأول مرة بسيجورد الفلسنجى Sigurd the Volsung وغيره من الأبطال

(*) وقد وردت هذه الكلمة أول ما وردت فى جذاذة ترجع إلى القرن العاشر وتعنى فى هذه الجذاذة جدة الأم . وكان من عجائب الأيام أن أصبح معناها علم العروض النرويجى وإن استعملها بهذا المعنى استرى استرلسون حين كتب بهذا العنوان (١٢٢٢) رسالة عن الأساطير النرويجية ومن فن الشعر ، وهذه الرسالة هى المعروفة لدينا باسم الإدا النثرية أو الصغرى .

الذكور والإناث والأوغاد الذين قدر لهم أن يتخذوا صورة أوضح من صورتهم هنا فى الڤولسنجساجا Volungasaga والنيبلنچناید Nibelungenlied. وأعظم قصائد الإدا قوة هى قصيدة الڤولسپا Voluspa التى تصف فيها البنية ڤولڤا فى صورة فخمة قاتمة خلق العالم ، وآخرته المنتظرة ثم بعثه فى آخر الأمر . وتختلف عن هذه القصيدة فى الأسلوب « أغنية الواحد الأعلى » التى يصوغ فيها أودين ، بعد أن يمر بمختلف الظروف ويلتقى بجميع أنواع الناس ، ما تمليه عليه حكمته من أمثال ليست كلها من الأمثـــال الخليقة بالآلهة :

لقد طرقت أماكن كثيرة مبكراً فوق ما يجب أو بعد فوات الأوان ؛ قبل أن تعدّ الجمعة أو بعد أن استنفدها الشاربون[٦٧] . . . خير أنواع السكْر هو الذى يستعيد كل إنسان بعده قواه العقلية[٦٨] . يجب ألا يثق الإنسان بأقوال فتاة ولا بأقوال امرأة ، لأن الخطيئة قد غرست فى صدورهن[٦٩] ؛ . . . هذا ما حدث لى حين حاولت إغواء تلك الغادة الفطنة ؛ . . . ولم أكسب من هذه الغادة شيئا[٧٠] . . . النهار يمدح فى المساء ، والسيف بعد أن يجرب ، والمرأة بعد أن تحرق جثتها[٧١] . . . كثيراً ما يعاقب الإنسان على الألفاظ التى يتحدث بها إلى غيره[٧٢] . . . واللسان هو سم الرأس[٧٣] . تجنب النزاع مع مَن هو شر منك واو اقتصر نزاعك معه على ثلاثة ألفاظ ، وكثيراً ما يستسلم خير الرجلين إذا ما ضر به شرهما[٧٤] . . . يجب أن يكون الإنسان حكيما فى اعتدال وألا يسرف فى الحكمة . . . لا تدع إنساناً يعرف مصيره قبل حلوله ، لأن عقله يأمن بذلك من المشاغل . . . إن ذا العقل قلما يبتهج قلبه[٧٦] (*) . . . خير البيوت بيتك ولو كان صغيرا[٧٧] . . . وخير المناظر منظر مصطلى الإنسان ومنظر الشمس[٧٨] .

وأكبر الظن أن قصائد الإدا الكبرى قد ظلت يتناقلها الناس شفويا حتى

(*) شبيه بهذا المعنى قول الشاعر العربى :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهـــالة بالشقاوة ينعم (المترجم)

القرن الثانى عشر ، ثم دونت فى ذلك القرن . وكانت الحروف الهجائية فى عصر الڤيكنج هى حروف أوربا الشمالية كما كانت هى حروف ألمانيا وإنجلترا الأنجليسكسونية . وكانت هذه الرموز (ومعناها الحرفى « الأسرار الخفية ») الأربع والعشرون تكوّن أبجدية أساسها بوجه عام هو الحروف اليونانية واللاتينية المطبعية الماثلة . وكان فى وسع الأدب فى ذلك العصر أن يستغنى عن الحروف ، ذلك أن الشعراء والمغنين كانوا يؤلفون قصائدهم ، ويحفظونها عن ظهر قلب ، ويتلونها ، ويتناقلها عنهم الناس شفويا ؛ وكانوا فى هذه القصائد يتغنون بالآلهة التيوتونية و « عصر الأبطال » (من القرن الرابع إلى القرن السادس) الذى بسطت فيه الشعوب الألمانية سلطانها على أوربا . وقد احتفظ استرلسون وغيره من الكتاب بقطع صغيرة من هذه الأغانى ، وبكثير من أسماء الشعراء . وأشهر هؤلاء كلهم هو سجفات ثوردارسون Sigvat Thordarsson الذى كان شاعراً ومستشاراً صريحا فى بلاط سانت أولاف . وكان شاعر آخر يدعى إچيل اسكلاجرمسون Egil Skallagrimsson (٩٠٠ — ٩٨٣) ، أشهر رجال زمانه فى أيسلندة — كان محارباً شجاعاً ، وشريفاً فردى النزعة ، وشاعراً جياش العاطفة . وقد فقد فى كبر سنه أصغر أولاده إذ مات غريقاً ، وكاد يقضى عليه الحزن لولا أن أقنعته ابنته بأن يستعيض عن ذلك بكتابة قصيدة . فعمل بإشارتها وكتب قصيدته المعروفة باسم « ثكل الابن » Sonartorrek التى يندد فيها بالآلهة ويتحداهم ويتهمهم بموت ولده . وهو يأسف لأنه لا يستطيع أن يعثر على أودين ليقاتله كما قاتل غيره من الأعداء . ثم يهدأ مزاجه حين يفكر أن الآلهة لم تسلط عليه الأحزان وكفى بل وهبته فوق ذلك ملكة الشعر ؛ ثم يرضى بحظه فيعتزم أن يعيش ويعود إلى منزلته العالية فى مجالس بلاده(٧٩)

وما من شك فى أن آداب ذلك العصر تغالى فى وصف ما كان يسود مجتمع الڤيكنج من عنف ، شأنها فى ذلك شأن الصحافة والتاريخ اللذين يخدعان القارئ

بالتحدث عما هو شاذ غير عادى ويهملان سير الحياة البشرية السوى . لكننا لا ننكر أن الظروف القاسية التى كانت تعيش فيها اسكنديناوة فى الزمن القديم اضطرت الأهلين إلى أن يخوضوا معركة حامية فى سبيل العيش لا يبقى فيها إلاّ أصلبهم عوداً ، ومن أجل هذا نشأ عندهم من عادات النزاع القديم والأخذ بالثأر والقرصنة غير المقيدة فى البحار المفتوحة ، نشأ من هذه العادات قانون أخلاقى على غرار قانون نيتشة يدين بالشجاعة التى لا ترعى مبدأ ولا ضميراً . قال فيكنج لصاحبه : « قل لى أى دين تؤمن به ؟ » فأجابه بقوله « إنى أومن بقوتى » . وأراد جولد هارلد Gold Harald أن يكون له عرش النرويج ، ورأى أن يناله بالقوة ، لكن صديقه هاكون نصحه بقوله : « فكّر فى أمرك واعرف هل تستطيع أن تبذل من قوة الرجولة ما يحقق مطمعك ، لأن نيل هذه الغاية يتطلب من صاحبها أن يكون جريئاً ، ثابتاً ، لا يحجم عن فعل الخير أو الشر إذا كان فيه ما يوصله إلى مطلبه »(٨١) . ومن هؤلاء الناس من كانوا يجدون فى القتال لذة تكاد تنسيهم آلام جراحهم ، ومنهم من كان يعتريهم وجد ونشوة فى القتال تعرف عندهم باسم برسركس جانجر berserksgangr أى « طريقة برسرك » . وكان ال سركيون — أو أصحاب قمصان الدببة — مقاتلين يندفعون إلى قلب المعركة دون أن يكون على أجسامهم قمصان من الزرد ، ثم يحاربون ويصرخون كالحيوانات المفترسة ، ويعضون بأسنانهم على دروعهم وهم غضاب ثائرون ، فإذا انقضت المعركة فقدوا وعيهم وخارت قواهم(٨٢) . وكانت الفلهالا محرمة على غير الشجعان ، ومن يمت فى القتال من أجل جماعته تغفر له جميع خطاياه .

وهكذا تعوّد « رجال الفيوردات » شظف العيش والألعاب العنيفة ، ثم ساروا فى سفائنهم ذات المجاذيف يفتحون لهم ممالك فى الروسيا ، وپمرانيا Pomerania ، وفريزيا ، ونورمندية ، وإنجلترا ، وأيرلندة ، وأيسلندة ،

وجرينلندة ، وإيطاليا ، وصقلية . ولم تكن هذه المغامرات غارات تقوم بها جموع من الجند كجهاد المسلمين أو طوفان المجر ، بل كانت بمثابة اندفاع حفنات متهورة من الرجال يرون كل ضعف جرماً ، وكل قوة عملا صالحاً ، يشتهون الأرض ، والنساء ، والثراء ، والسلطان ، ويشعرون أن من حقوقهم المقدسة أن يكون لهم نصيب من ثمار الأرض . ولقد بدأوا حياتهم قراصنة واختتموها ساسة وحكاماً . فمنهم رولو Rollo الذى وهب نورمنديا نظاماً مبدعاً خلاقاً ، ومنهم وليم الفاتح الذى وهب إنجلترا هذا النظام نفسه ، وروجر الثانى منشئه فى صقلية . ولقد مزجوا دمهم الشمالى الجديد بدماء الشعوب التى أضعفتها الحياة الريفية الرتيبة فبعثوا فيها قوة ونشاطاً ، ألا إن التاريخ قلما يفنى من لا يستحق الفناء ، وإن احتراق نُفَايات الزروع ليخصب تربة الأرض ويجعلها أصلح مما كانت للزرع الجديد .

الفصل السادس

ألمـــانيا : ٥٦٦ — ١١٠٦

١ — تنظيم السلطة

لقد كانت غارات الشماليين المرحلة الأخيرة فى غارات البرابرة التى تدفقت من ألمانيا قبل الوقت الذى نتحدث عنه بخمسة قرون ، وقطعت أوصال الدولة الرومانية ، وقسمتها إلى أمم أوربا الغربية ؛ وخليق بنا أن نسأل الآن عن مصير الألمان الذين بقوا فى ألمانيا نفسها .

لقد أدى خروج تلك القبائل العظيمة — القوط ، والوندال ، والبرغنديين ، والفرنجة ، واللمبارد — إلى نقص سكان ألمانيا إلى حين ، فتحرك الوند **Wend** الصقالبة غرباً من ولايات البحر البلطى ليملأوا ذلك الفراغ ، وأصبح نهر الإلب قبل أن يحل القرن السادس الحد الجنسى ، كما هو الآن الحد السياسى ، بين العالم الصقلبى والعالم الغربى . فقد كان فى غرب الإلب والسال **Saale** من بقى من القبائل الألمانية : السكسون فى شمالى ألمانيا الوسطى ، والفرنجة الشرقيون فى حوض الرين الأدنى ، والثورنجيون بين هؤلاء وأولئك ، والباڤاريون **Bavarians** (الذين كانوا يسمون المركونيين من قبل) فى حوض الدانوب الأوسط ، والسوابيون **Swabians** (الذين كانوا يسمون السويفيين) على ضفاف نهر الرين والدانوب الأعليين وفيما بينهما ، وعلى طول جبال چورا **Jura** الشرقية والألب الشمالية . ولم تكن فى أوربا بلاد تسمى ألمانيا ، بل كل ما كان فيها قبائل ألمانية ، وقد وهبها شارلمان وقتاً ما وحدة مشوهها الفتح ، ومستلزمات النظام المشترك ، ولكن انهيار الإمبراطورية الكارولنچية فكك هذه الروابط ، وظل الوعى القبلى والنزعة المحلية

يمنعان كل عامل يؤدى إلى المركزية حتى أيام بسمارك ، ويضعفان قوة ذلك الشعب الذى يعانى الأمرين من جراء انحصاره بين أعدائه من جهة وبين جبال الألب والبحر من جهة أخرى :

وأقامت معاهدة فردون (٨٤٣) فى واقع الأمر لويس أولدفج Ludwgi حفيد شارلمان أول ملك على ألمانيا ، وأضافت معاهدة مرسن Mersen (٨٧٠) إلى أملاكه بلاداً جديدة ، وحددت ألمانيا بأنها الأرض المحصورة بين نهرى الرين والإلب ، تضاف إليها أجزاء من اللورين Lorraine ، وأسقفيات مينز ، وورمز ، واسبير Speyer . وكان لويس حاكما وسياسياً من الطراز الأول ، غير أنه كان له ثلاثة أولاد ، قسمت مملكته بينهم جميعاً بعد وفاته ، وضربت الفوضى أطنابها فى أنحاء البلاد عشر سنين أغار فيها الشماليون على مدائن الرين ، واختير بعدها آرنلف Arnulf ، وهو ابن غير شرعى لكارلومان Carloman ابن لويس ، ملكا على « فرنسيا الشرقية Fast Francia » (٨٨٧) ورد الغزاة على أعقابهم . ولكن لويس « الطفل » (٨٩٩ ــ ٩١١) الذى خلفه على العرش كان أصغر وأضعف من أن يصد المجر الذين اجتاحوا باڤاريا (٩٠٠) وكارنثيا (٩٠١) ، وسكسونيا (٩٠٦) ، وثورنجيا (٩٠٨) ، وأليمانيا Alemannia (٩٠٩) ؛ وعجزت الحكومة المركزية عن حماية هذه الولايات ، فكان على كل واحدة منها أن تدافع عن نفسها . وجهز أدواق الولايات ما يحتاجونه من الجيوش بأن أقطعوا أتباعهم الأرض نظير قيامهم بالخدمة العسكرية ، ونال الأدواق بفضل الجيوش المؤلفة على هذا النحو استقلالهم الفعلى عن التاج ، وأنشئوا ألمانيا الإقطاعية . ولما مات لويس رفع الأعيان وكبار رجال الدين كنراد الأول دوق فرنكونيا (٩١١ — ٩١٨) على عرش البلاد ، وكانوا قد نجحوا فى أن يكون لهم هم حق اختيار الملك . وأنهك كنراد قواه فى النزاع مع

هنرى دوق سكسونيا ، ولكنه بلغ من الحصافة أن أوصى باختيار هنرى ليخلفه على العرش . وصد هنرى الأول ، المسمى « بالصائد » لشغفه بصيد الطير ، قبائل الوند الصقلية إلى نهر الأودر Oder وحصن ألمانيا لتقوى على صد المجر ، وهزمهم فى عام ٩٣٣ ومهد بجهوده السبيل إلى أعمال ابنه المجيدة .

وكان أتو الأول الأكبر (٩٣٦ ـ ٩٧٣) شارلمان ألمانيا ، ولم تكن سنه حين جلس على العرش قد تجاوزت الرابعة والعشرين ، ولكنه كان فى هذه السن الصغيرة مليكا بحق فى مظهره ومخبره ، وأحس بما للمراسم والرموز من عظيم الشأن فأقنع أدواق لورين ، وفرنكونيا ، وسوابيا ، وباڤاريا ، بأن يؤلفوا حاشيته فى حفل تتويجه الفخم فى آخن على يد هيلدبرت Hildebert كبير الأساقفة ، ولكن الأدواق ثاروا فيما بعد على سلطته المطردة النماء ، وأغروا هنرى أخاه الأصغر بأن يشترك معهم فى مؤامرة تعمل لخلعه . وكشف أتو هذه المؤامرة ، وقضى عليها ، وعفا عن هنرى ، ثم ائتمر هنرى به مرة أخرى ، وعفا عنه للمرة الثانية ؛ وأقطع المليك الداهية دوقيات جديدة لأصدقائه وأقاربه ، وأخضع الأدواق لسلطانه شيئاً فشيئاً . ولم يرث من جاء بعده من الملوك ما كان له من دهاء وعزيمة ماضية فاحترقت ألمانيا فى العصور الوسطى بنار النزاع بين الإقطاع ، والملكية . وانحاز الأساقفة الألمان إلى جانب الملك فى هذا النزاع ، فأصبحوا بذلك مساعديه ومستشاريه فى الشئون الإدارية ، بل كان منهم فى بعض الأحيان قواد جنده . وكان الملك يعين الأساقفة ورؤساء الأساقفة كما كان يعين غيرهم من موظفى الحكومة ، فأصبحت الكنيسة الألمانية بهذه الوسيلة نظاما قومياً بحتا لاترتبط بالبابوية إلا بأوهن الروابط . واتخذ أتو الدين المسيحى قوة لتوحيد البلاد فصهر به القبائل الألمانية وخلق منها دولة قوية .

وهاجم أتو الوند استجابة لرغبة أساقفته ، وحاول أن يرغمهم بالسيف على اعتناق المسيحية . وأرغم ملك الدنمرقة ودوق پولندة وبوهيميا على أن يعترفوا به سيدهم الإقطاعى . وكان يطمع فى أن يتولى عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ولهذا رحب بالدعوة التى وجهتها إليه أدليد الحسناء أرملة لوثير ملك إيطاليا لينقذها مما لحق بها من الإهانة على يدى برنجار الثانى المليك الجديد . وخلط أتو بمهارته بين السياسة والغرام ؛ فغزا إيطاليا ، وتزوج بأدليد ، وسمح لبرنجار أن يحتفظ بمملكته على أن تكون إقطاعاً له من التاج الألمانى (٩٥١) . وأبى الأشراف الإيطاليون أن يعترفوا بألمانى إمبراطوراً لأن هذا يستلزم أن يكون هذا الإمبراطور سيداً لإيطاليا ، وبدأ وقتئذ بين الطرفين نزاع دام ثلاثة قرون . وخرج على كنراد وهو غائب عن ألمانيا ابنه لودلف وزوج ابنته كنراد ، فعاد أتو إلى ألمانيا لكيلا ينشأ عن محاولته أن يكون إمبراطوراً ألا يظل ملكاً . ولما أن غزا المجر ألمانيا مرة أخرى (٩٥٤) رحب بهم لودلف وكنراد وأمدهم بمن يرشدهم فى غزوهم ؛ وقطع أتو دابر الفتنة ، وعفا عن لودلف ، وأعاد تنظيم جيشه ، وأوقع بالمجر عند لخفلد Lechfeld القريبة من أجزبرج Augsburg هزيمة منكرة (٩٥٥) ؛ أفاءت على ألمانيا فترة طويلة من الأمن والسلام . وصرف أتو بعدئذ جهوده إلى شئون البلاد الداخلية — فأعاد النظام إلى نصابه ، وقضى على الجرائم ، وأعاد ألمانيا المتحدة إلى الوجود ، وجعلها أعظم الدول رخاء فى تلك الأيام .

وسنحت له الفرصة مرة أخرى لإنشاء الإمبراطورية حين استعانه البابا يوحنا الثانى عشر على برنجار (٩٥٩) . فغزا أتو إيطاليا على رأس قوة كبيرة ، ودخل رومة من غير قتال ، ووجه يوحنا الثانى عشر إمبراطوراً رومانياً على الغرب فى عام ٩٦٢ . ثم ندم البابا على فعلته ، وأخذ يشكو من أن أتو لم يوف بما وعده به من

إعادة إكسرخسية(*) براڤنا إلى البابوية . واتخذ أتو الخطوة المتطرفة الجريئة فزحف على رومة ، وعقد مجلساً دينياً من الأساقفة ، وأقنعه بوجوب خلع يوحنا وتنصيب رجل من غير رجال الدين بابا مكانه باسم ليو الثامن (٩٦٣) . واقتصرت أملاك البابا وقتئذ على دوقية رومة وإقليم سابينا ، واندمجت بقية إيطاليا الوسطى والشمالية فى إمبراطورية رمانية مقدسة أضحت إقطاعية من إقطاعيات التاج الألمانى . وكان ملوك ألمانيا يتخذون من هذه الحوادث حجة يبنون عليها إدعاءهم أن إيطاليا جزء من ميراثهم ، أما البابوات فكانوا يتذرعون بها للقول بأن أحداً لا يستطيع أن يكون إمبراطوراً رومانياً فى الغرب إلا إذا توجه البابا .

ولما أحس أتو بقرب منيته أراد أن يتقى ما عسى أن يعقب موته من الفوضى ، فحمل البابا يوحنا الثالث عشر على أن يتوج ابنه أتو الثانى إمبراطوراً معه (٩٦٧) ، وزوج ابنه هذا بثيوفانو ابنة رومانوس Romanus الثانى إمبراطور بيزنطية (٩٧٢) ، وتحقق بذلك إلى وقت قصير ما كان يحلم به شارلمان من توحيد الإمبراطوريتين بطريق الزواج ؛ ثم توفى أتو ولما يتجاوز الستين من عمره ، ولكنه قام فى هذه السنين القلائل بما لم يقم به ذوو الأعمار الطوال (٩٧٣) ، وحزنت عليه ألمانيا كلها وعدته أعظم ملوكها . وصرف أتو الثانى (٩٧٣ — ٩٨٣) جهوده فى ضم إيطاليا الجنوبية إلى دولته ومات فى هذه المحاولة منهوك القوى قبل الأوان . وكان أتو الثالث (٩٨٣—١٠٠٢) وقتئذ طفلا فى الثالثة من عمره ، فحكمت البلاد أمه وجدته أدليد ناثبتين عنه مدة ثمان سنين ، وأدخلت ثيافانو فى أثناء نفوذها الذى دام ثمانية عشر عاماً بعض مظاهر الرقة البيزنطية إلى البلاط الألمانى ، وبثت روح النهضة التى بدأها أتو فى الآداب والفنون .

(*) الإكسرخسية Exarchate مقاطعة يحكمها إكسرخس Exarch . والإكسرخس اسم كان يطلق قديماً على نائب الإمبراطور فى إيطاليا ؛ ومنصبه شبيه بمنصب الأسقف ، ومعناه لغة القائد . (المترجم)

ولما بلغ أتو السادسة عشرة من عمره (٩٩٦) شرع يحكم البلاد بنفسه . وأثر فيه جربرت وغيره من رجال الدين ، فعرض أن يتخذ روما عاصمة لملكه، ويجمع البلاد المسيحية كلها تحت سيادة الإمبراطورية الرومانية بعد أن يعيدها إلى الوجود ويشترك فى حكمها الإمبراطور والبابا . وفسر أعيان رومة ولمبارديه وسوقتها هذا العمل بأنه مؤامرة ترمى إلى إقامة حكم بيزنطى ألمانى فى إيطاليا ، ولهذا وقفوا فى وجه أتو ، وأقاموا فى البلاد «جمهورية رومانية» وقلم أتو أظفار الفتنة ، وأعدم كرسنتيوس Crescentius زعيمها ، ثم عين جربرت بابا فى عام ٩٩٩ ؛ ولكن حياة أتو التى لم تزد على اثنتين وعشرين سنة ، وبابوية جربرت التى دامت أربع سنين ، كانتا أقصر من أن تمكناه من تنفيذ سياسته بحذافيرها ؛ يضاف إلى هذا أن أتو ، وهو نصف قديس ولكنه رجل إلى حد ما ، قد وقع فى حب استفانيا Stephania أرملة كرسنتيوس ، ورضيت أن تكون عشيقته وسجينته ، ولما أحس المليك الشاب أن الموت يسرى فى عروقه أخذ يبكى ويندم ، حتى قضى نحبه فى ڤيتربو Viterbo ولما يتجاوز الثانية والعشرين من عمره(٨٣) .

وبذل هنرى الثانى (١٠٠٢ — ١٠٢٤) آخر ملوك ألمانيا السكسون جهده ليعيد إلى الملك قوته فى إيطاليا وألمانيا ، حيث قوى حكم الغلامين الصغيرين سلطان الأدواق وجرأ عليهما الدول المجاورة لهما . وبدأ بكنراد الثانى (١٠٢٤—١٠٣٩) حكم الأسرة الفرنكونية أو السالية من الأباطرة . وقد أعاد السلام إلى إيطاليا وضم إلى ألمانيا مملكة برغندية أو آرليس Arles . ودفعته حاجته إلى المال إلى أن يبيع مناصب الأساقفة بأثمان عالية أنبه عليها ضميره ، فأقسم ألا يعود إلى بيع المناصب الدينية بالمال و «كاد يفلح فى أن يبر بقسمه»(٨٤) . وبلغت الإمبراطورية فى عهد ابنه هنرى الثالث (١٠٣٩ —١٠٥٦) ذروة مجدها . وقد عرض فى «يوم الغفران» من عام ١٠٤٣ فى كنستانس Constance أن يعفو عن كل من أساء إليه ، وحض رعاياه أن يطهروا صدورهم من كل حقد ورغبة فى الانتقام . وقد أفلح

بفضل مواعظه وقدوته الحسنة — وبفضل سلطانه فى أغلب الظن — فى أن يقضى على كثير من منازعات الأدواق ، وتعاون مع « الهدنة الإلهية » فى نشر ظل عهد ذهبى قصير الأجل على أوربا الوسطى . وقد ناصر العلوم ، وأنشأ المدارس ، وأتم كنائس اسبير ، ومينز ، وورمز . ولكنه لم يكن قديساً يعمل للسلام الدائم ، فقد ظل يحارب المجر حتى اعترفت له بالسيادة الإقطاعية عليها ، وخلع ثلاثة من المتنافسين على البابوية ، وعين اثنين من البابوات واحداً بعد الآخر ، ولم يكن فى أوربا كلها من يماثله فى سلطانه ، ولكنه اندفع بسلطانه فى آخر الأمر إلى الحد الأقصى فأثار بذلك مقاومة الأساقفة والأدواق جميعاً . غير أنه مات قبل أن تهب العاصفة ، وخلف لهنرى الرابع بابوية معادية ، ومملكة مضطربة .

وكان هنرى فى الرابعة من عمره حين توج ملكا فى آخن وفى السادسة حين توفى أبوه وحكمت أمه واثنان من الأساقفة بالنيابة عنه حتى عام ١٠٦٥ حين أعلن أن الغلام وهو فى الخامسة عشرة قد بلغ سن الرشد ، فوجد نفسه وقد آلت إليه سلطة إمبراطورية كفيلة بلا ريب بأن تذهب بعقل أى شاب ، وأصبح بطبيعة الحال يؤمن بالسلطة المطلقة ، ويسعى لأن يحكم البلاد على هذا الأساس . وسرعان ما وجد نفسه فى خصام أو حرب مع هذا أو ذاك من النبلاء الذين كادوا لعجزه أن يقطعوا أوصال دولته . ذلك أن السكسون قد أغضبتهم الضرائب المفروضة عليهم ، وأبوا أن يردوا أراضى التاج التى يدعيها لنفسه ، وظل يحاربهم حربا منقطعة دامت خمسة عشر عاما (١٠٧٢ — ١٠٨٨) ؛ ولما أن هزمهم فى عام ١٠٧٥ أرغم قوتهم الكبرى ومن فيها من أشم النبلاء أنوفاً وكبار الأساقفة الحربيين أن يمشوا حفاة مجردين من السلاح بين صفين من جنده ، ويقدموا مراسم الاستسلام عند قدميه . وفى تلك السنة نفسها أصدر البابا جريجورى السابع مرسوماً يعارض به حق غير رجال الدين فى تعيين الأساقفة أو رؤساء الأديرة ، واستمسك هنرى بالسوابق المتبعة منذ مائة عام ، ولم يشك مطلقا فى أن تعيين هؤلاء وأولئك من

حقه ، وظل عشر سنين يحارب جريجورى حربا دبلوماسية وعسكرية ، لم تنته إلا بموته ، وكانت من أشد الحروب هولا فى تاريخ العصور الوسطى. وانتهز نبلاء ألمانيا المتمردون المشاكسون هذا النزاع ليزيدوا سلطتهم الإقطاعية ، وعاد السكسون الذين استذلهم الملوك إلى ثورتهم . وانضم أبناء هنرى إلى معارضيه وظل النزاع قائماً حتى نادى مجلس مينز بهنرى الخامس ملكا فى عام ١٠٩٨ ، وأسر الابن أباه وأرغمه على النزول عن العرش (١١٠٥) ، ثم فر الأب وأخذ يحشد جيشاً جديداً ، لكنه مات فى ليبج فى السنة السابعة والخمسين من عمره (١١٠٦) ؛ ولم يجد البابا باسكال Paschl الثانى من حقه أن يمنح رجلا محروماً مات دون أن يتوب دفنة مسيحية ، ولكن أهل ليبج تحدوا البابا والملك وشيعوا جنازة هنرى الرابع فى موكب ملكى فخم ووارروه التراب فى كنيستهم الكبرى .

٢ ــ الحضارة الألمانية ٥٦٦ ــ ١١٠٦

واستطاعت جهود الرجال والنساء الذين يفلحون الأرض وينشّئون الأطفال أن تفتح ألمانيا وتهيئها للحضارة . لقد كانت الغابات فيها ضخمة كثيفة إلى أقصى حد ، تأوى إليها الوحوش الكاسرة ، وتعوق الاتصال والوحدة ، وقام أبطال مجهولون بتقطيع أشجار الغابات ، ولعلهم أسرفوا فى هذا التقطيع ، ودام الكفاح فى سكسونيا بين الأهلين وبين الأشجار التى تنمو بطبيعتها كلما قطعت ، والمناقع التى تنشر الأوبئة ــ دام هذا الكفاح ألف عام ولم يكتب النصر فيه للإنسان إلا فى القرن الثالث عشر . وتوالت الأجيال جيـــلا بعد جيل والزراع المجدون البواسل يطاردون الوحوش ، وينقصون من أطراف البرارى القاحلة ، ويذللون الأرض بالفأس والمحراث ، ويغرسون أشجار الفاكهة ، ويربون قطعان الماشية ، ويعنون بالكروم ، ويخففون من آلام وحدتهم بالحب والصلاة ، والأزهار والموسيقى والجمعة . وكان المعدنون يستخرجون من الأرض الملح ، والحديد ،

والنحاس ، والرصاص ، والحرف اليدوية القائمة فى الضياع ، والأديرة ، والمنازل ، تقرن الحذق الرومانى إلى الألمانى ؛ والتجارة تنمو ويطرد نشاطها فى الأنهار وتنساب إلى البحرين الأسود والبلطى : وكسب السكان المعركة العظيمة آخر الأمر ؛ نعم إن الهمجية ظلت كامنة فى شرائع البلاد وفى دماء الأهلين ، ولكن الثغرة التى كانت قائمة بين فوضى القرن الخامس القبلية ونهضة القرن العاشر التى بعثها أتو اجتيزت آخر الأمر ، وصارت ألمانيا فيما بين ٩٥٥ و ١٠٧٥ أكثر بلاد أوربا رخاء ، لا يضارعها فى هذه الناحية إلا شمالى إيطاليا التى أخذت القانون والنظام عن الملوك الألمان . وواصلت المدن الرومانية القديمة أمثال تريير ، ومينز ، وكولونى تقدمها ، ونشأت مدن جديدة حول مراكز الأساقفة فى اسپير ، ومجدبرج ، وورمز ؛ وبدأنا حوالى عام ١٠٥٠ نسمع عن مدينة نورمبرج .

وكانت الكنيسة مربية ألمانيا والقائمة على إدارة شئونها فى ذلك العصر ؛ فقد افتتحت مدارس — أو بالأحرى كليات فى أديرة فُلدا ، وبجرنسى Tegernse ، وريخنو Reichenan ، وجندرسهايم Gandersheim ، وهيلدسهايم Hildesheim ، ولورسخ Lorsch . ولما عين ربانوس موروس Rabanus Maurus (٧٧٦ ؟ — ٨٥٦) رئيساً لدير فلدا العظيم فى بروسيا بعد أن أتم دراسته تحت رعاية ألكوين فى تور ، رفع مكانة مدرسة هذا الدير وأذاع شهرتها فى جميع أنحاء أوربا حتى أضحت اما رؤوماً للعلماء ولاثنين وعشرين معهداً تنتسب إليها . وقد وسع منهاجها حتى شمل كثيراً من العلوم الطبيعية ، وندد بالخرافات التى كانت تعزو الحوادث الطبيعية للقوى السحرية الخفية(٨٥) . ونمت دار الكتب فى فلدا حتى أضحت من كبريات المكتبات العامة فى أوربا ؛ وهى التى أخرجت لنا سوتونيوس Suetonius وناستوس ، وأمنيانوس مارسلنوس Ammaianus Marcellinus . وثمة رواية غير موثوق بصحتها تعزو إلى ربانوس أنشودة « جئت يا خالق الأرواح Veni Creator Spiritus » التى تنشد وقت

تدشين البابوات والأساقفة والملوك[٨٦] ، وافتتح سانت برونو St. Bruno ، الذى كان دوق لورين وكبير أساقفة كولونى ثم أصبح مستشاراً إمبراطوريا لأتو الأكبر ، مدرسة فى القصر الملكى ليدرب فيها طبقة من الموظفين الإداريين ، واستقدم العلماء وجاء بالكتب من بيزنطية وإيطاليا وكان هو نفسه يعلم فيها اللغة اليونانية والفلسفة .

ولم تكن اللغة الألمانية قد نشأت لها آداب فى ذلك الوقت ؛ وكان القائمون بالكتابة كلهم تقريبا من رجال الدين ، وكانت لغة الكتابة هى الألمانية . وكان أعظم شعراء العصر الألمان هو ولفريد استرابو Walafrid Strabo (٨٠٩ — ٨٤٩) وهو راهب سوابى فى ريخنو . وكان وقتاً ما مربياً لشارل الأصلع فى قصر لويس التقى بآخن . وقد وجد له فى يوديث الحسناء الطموحة زوجة لويس نصيرة مستنيرة . ولما عاد إلى ريخنو ليتولى رياسة ديرها صرف جهوده كلها فى الدين ، والشعر ، وفلاحة البستانين ، وقد وصف لنا فى قصيدة له ممتعة فى العناية بالحدائق De cultura hortorum كل عشب وزهرة من الأعشاب والأزهار التى كان يربيها ويشغف بها .

وكان أعظم من ينافسه فى الأدب الألمانى فى تلك القرون راهبة تدعى هرسويذا Hroswitha ، وهى واحدة من كثيرات من النساء اللاتى امتزن فى ذلك العصر بثقافتهن ورقتهن . وقد ولدت حوالى عام ٩٣٥ ، ثم دخلت دير البندكتين فى جندرسهايم Gandersheim . وما من شك فى أن مستوى التعليم فى ذلك الدير كان أرقى مما نتوقع ، ذلك أن هرسويذا قد درست شعراء رومة الوثنية ، وعرفت كيف تكتب باللغة اللاتينية بأسلوب سلس واضح ، وكتبت بالشعر اللاتينى السداسى الأوتاد تراجم لبعض القديسين ، كما أنشأت ملحمة أصغر من هذه التراجم عن أتو الأكبر . ولكن كتبها التى خلدت ذكرها هى ستة مسرحيات نثرية من نوع المسلاة حذت فيها حذو ترنس Terence

وتقول هى إن الغرض الذى كانت ترمى إليه من كتابتها هو « أن تجعل الهبة الصغيرة التى حباها بها الله ، تخرج بدافع الإخلاص صوتاً ضئيلا تحمد به الله »(٨٧) . وتقول إنه يحزنها ما فى المسالى اللاتينية من بذاءة وثنية ، وإنها تحب أن تعرض على القراء بدلا منها مسالى مسيحية ؛ ولكن مسرحياتها نفسها تدور حول حب دنس لا يكاد يخفى ما ينطوى عليه من شهوة جثمانية . وخير مسرحياتها القصيرة هى مسرحية أبراهام ، وفيها يغادر ناسك مسيحى صومعته ليعنى بابنة أخ له يتيمة . ثم تفر الفتاة مع شخص أغواها لا يلبث أن يهجرها ، فتصبح من العاهرات . ويقتفى أبراهام أثرها ، ويدخل عليها حجرتها متخفياً . وتقبله ، فتعرفه ، وترتد عنه فى خجل ، ويدور بينهما حوار شعرى رقيق يقنعها به أن تقلع عن حياة الرذيلة وتعود معه إلى بيتهما . ولسنا نعرف هل مثلت هذه المسرحيات القصيرة أو لم تمثل ، ذلك أن المسرحيات الحديثة لم تكن صدى لمسرحيات ترنس وأمثالها ، بل نشأت من حفلات الكنيسة « وطقوسها الخفية » بعد أن امتزجت بها « مساخر» الممثلين الجائلين الصامتة .

ولم تكن الكنيسة موطناً للشعر ، والتمثيل ، وكتابة التاريخ فحسب ، بل إنها فوق ذلك أمدت الفن بالموضوعات والمال . فقد تأثر الرهبان الألمان بالمثل البيزنطية والكارولنجية ، وشجعتهم مناصرة الأميرات الألمانيات فأخرجوا فى ذلك العصر عشرات العشرات من المخطوطات المزخرفة ذات الجمال الممتاز . ويكاد برنولد Bernewald الذى كان أسقف هلدسهايم من ٩٩٣ إلى ١٠٢٢ أن يكون فى حد ذاته خلاصة لثقافة ذلك العصر : فقد كان مصوراً ، وخطاطاً ، وصانعاً للمعادن والفسيفساء ، وحاكماً إدارياً ، وقديساً . وقد جعل المدينة التى يعيش فيها مركزاً للفنون بمن جمع فيها من الفنانين على اختلاف أنواعهم ومواهبهم . وبفضل معونتهم ، ويده الصناع أخرج صلباناً محلاة بالجواهر ، وماثلات من الذهب والفضة منقوشة عليها صور للحيوان والنبات ، وكأساً من كؤوس القربان

مطعمة بجواهر قديمة تمثل واحدة منها ربات الجمال الثلاث عاريات كعادتهن(٨٨) . وكانت الأبواب الذائعة الصيت التى صنعها فنانوه لكنيسته أولى الأبواب المعدنية فى العصور الوسطى التى صبت صباً بدل أن تصنع من ألواح مستوية ملصقة على الخشب . أما فن العمارة المحلية فلم يكن قد بدت فيه شواهد على تلك الأشكال الجميلة التى ازدانت بها المدن الألمانية فى عصر النهضة ؛ غير أن مبانى الكنائس قد أخذت فى ذلك الوقت تنتقل بالتدريج من الخشب إلى الحجارة ، واستوردت من لمبارديا الآراء الرومانسية الخاصة بالأجنحة ، وأمكنة المرتلين ، والصحن ، والأبراج ، وبدأت وقتئذ كنائس هيلدسهايم ، ولورسخ ، وومز ، ومينز ، وتريير واسپير ، وكولونى . وكان النقاد الأجانب يشكون مما يتصف به هذا الفن الربنى — الرومانسى من سقوف خشبية مستوية ، وإفراط فى الزخارف الخارجية ، ولكن هذه الكنائس تعبر أصدق تعبير عما فى الخلق الألمانى من قوة وصلابة وعن روح ذلك العصر الذى يكافح أشد الكفاح ليرقى إلى مدارج الحضارة .